

البحث رقم (٣)

## **الدلالات الدعوية في وصية ابن الجوزي لولده المشهورة بـ "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد"**

إعداد

د. خالد بن سعد الزهراني

الأستاذ المشارك في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة



## المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٢.

(٢) سورة النساء، آية ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠-٧١.

(٤) هذه خطبة الحاجة. أخرجها الإمام أحمد، وأبو داود في كتاب النكاح، باب في خطبة الحاجة، برقم ٢١١٨، والترمذي، في جامعه كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح، برقم ١١٠٦ وقال صحيح، والنسائي، كتاب الجمعة، باب الدنو من الإمام يوم الجمعة، برقم ١٧٠٩، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، برقم ١٨٩٣، وصححها الألباني في كتابه خطبة الحاجة ص: ٩.

يعتبر إبداء النصيحة والوصية للأهل والاحباب من أعظم ما يحقق الخير، ومن أعظم ما ينمي مشاعر الألفة والمحبة بينهم؛ وهو طريق لإيصال الحق؛ وهو سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من عباد الله الصالحين؛ قال تعالى مخبراً عن نبيه هود - عليه السلام-: ﴿أَتِلْفُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِعٌ أَمِينٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- النصيحة هي الدين، فعن أبي رقية تميم بن أوس الداري -رضي الله عنه-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»<sup>(٢)</sup> وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- " علموا أنفسكم وأهليكم الخير"<sup>(٣)</sup> وقد أرسى معالم النصيحة والوصية بالخير محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- وذلك حين أوصى ابنته فاطمة -رضي الله عنها- فقال " يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله شيئاً"<sup>(٤)</sup>.

وقد أوصى النبي -صلى الله عليه وسلم- ابن عمه عبد الله بن العباس فقال: "يا غلام أني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك. "<sup>(٥)</sup> ومن هنا أردت أن أدرس هذه الوصية الرائعة التي قدمها ابن الجوزي -رحمه الله- لابنه وفلذت كبده، واستنبط منها الدلالات الدعوية رجاء نفع نفسي ومن يطلع عليها من المسلمين.

(١) سورة الأعراف، آية ٦٨.

(٢) أخرجه مسلم، باب بيان أن الدين النصيحة، برقم ٥٥.

(٣) أثر صحيح أخرجه الحاكم ٤/٤٩٤.

(٤) رواه مسلم باب قوله تعالى "وأُنذِرُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" رقم ٢٠٤.

(٥) رواه الترمذي في سننه: كتاب الذبائح أبواب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله رقم :

٢٥٠٠، وقال: حديث حسن صحيح وأحمد في مسنده رقم: ٢٧٦٣ والحاكم في المستدرک

رقم: ٦٣٠٤.

## أهمية البحث:

لهذا الموضوع أهمية كبرى أجملها في الآتي:

١. عظم شأن ومكانة الوصايا عامة ووصية ابن الجوزي لابنه خاصة.
٢. اتباع ابن الجوزي للسلف الصالح رحمهم الله في نصح الأبناء.
٣. التعرف على ما في نصيحة ابن الجوزي -رحمه الله- من الدلالات الدعوية الرائعة التي تنفع الناصح في نصحه.

## أهداف البحث وتساؤلاته:

١. يهدف البحث لتحقيق ما يأتي:
٢. بيان مفهوم الوصية.
٣. إيضاح المضامين الدعوية في وصية ابن الجوزي -رحمه الله- لابنه.
٤. إيضاح أسس منهج ابن الجوزي في وصيته وأساليبه.

## يجب البحث على التساؤلات التالية:

١. ما مفهوم الوصية عموماً؟
٢. ما المضامين الدعوية في وصية ابن الجوزي رحمه الله لابنه؟
٣. ما أسس منهج ابن الجوزي في وصيته، وأساليبه؟

## حدود البحث:

ستكون حدود البحث وفق التمهيد والمباحث المحددة في خطة البحث.

## منهج البحث:

سيكون المنهج المتبع في هذا البحث - إن شاء الله - قائماً على المنهج الوصفي، بالإضافة إلى إتباع الخطوات المنهجية في كتابة البحث، وهي:

١. عزو الآيات القرآنية إلى سورها مع ذكر الآية وكتابتها بالرسم العثماني.

٢. عزو الأحاديث إلى مصادرها الأصلية من كتب السنة.
٣. عزو كل ما يرد في البحث إلى المصادر والمراجع ذات الصلة مع بيان اسم الكتاب والمؤلف.
٤. الالتزام بعلامات الترقيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط.
٥. لا أحيل في النصوص المقتبسة من الوصية، واكتفي بورد نص الوصية كاملة في أول البحث، كما أني اكتفيت بالتخريج والتصحيح والتضعيف، والاحالة في صلب الوصية فقط واترك ذلك في الاقتباس.
٦. قد أكرر الشاهد من الوصية بحسب الحاجة "وهو قليل"، وأعلق على النص إذا رأيت الحاجة إلى ذلك.
٧. لا ألترم بالتراجم للرجال الواردة أسمائهم في البحث خشية الإطالة.
٨. عمل الفهارس اللازمة كما هو موضح في الخطة.

#### خطة البحث:

يتضمن البحث مقدمة، وتمهيدا. ومبحثين، وخاتمة، والفهارس اللازمة، وفيما يأتي تفصيل ذلك: المقدمة تشتمل على:

- أهمية البحث.
- أهداف البحث.
- تساؤلات البحث.
- حدود البحث.
- منهج البحث.

التمهيد: ويشمل الآتي:

أولاً: مفهوم الوصية لغة واصطلاحاً

ثانياً: تعريف الوصية في الشرع.

ثالثاً: تعريف الوصية في الاصطلاح:

رابعاً: الألفاظ ذات الصلة بمصطلح الوصية

خامساً: أهمية وصية الأولاد ومشروعيتها.

سادساً: دليل مشروعية الوصية:

نص الوصية كاملة:

المبحث الأول: المضامين الدعوية في وصية ابن الجوزي لولده.

المطلب الأول: المضامين العقدية.

المطلب الثاني: المضامين التعبدية

المطلب الثالث: المضامين الخلقية والسلوكية.

المطلب الرابع: المضامين العلمية.

المبحث الثاني: أسس منهج ابن الجوزي وأساليبه في وصيته لولده

المطلب الأول: الأسس البيانية.

المطلب الثاني: الأسس العلمية لمنهج ابن الجوزي في وصيته لولده.

المطلب الثالث: الأساليب الدعوية لابن الجوزي في وصيته

الخاتمة.

الفهارس:

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

## التمهيد: مفهوم الوصية

أولاً: مفهوم الوصية لغة واصطلاحاً:

الْوَصِيَّةُ تطلق لغة ويراد بها معنيان: العهد، والوصل والاتصال.  
قال ابن منظور: (أوصى الرجل ووصاه عهد إليه)، فالْوَصِيَّةُ ما يُوصى به، أو ما أوصيت به، وجمعها وصايا<sup>(١)</sup> وأصلها: وصيت. ووصيت الشيء بالشيء أصيه من باب وعد: وصيته<sup>(٢)</sup>، قال أبو عبيد وصيت الشيء ووصلته سواء<sup>(٣)</sup>. وصي إليه وله بشيء: جعله له، ووصي فلاناً وإليه: عهد إليه، ووصي فلاناً جعله وصيه يتصرف في أمره وماله وعياله بعد موته، ووصي بالشيء فلاناً: أمره به وفرضه عليه، يقال وصي الله الناس بكذا وكذا<sup>(٤)</sup>، وأوصيت إليه بمال جعلته له، وأوصيته بولده استعطفه عليه وهذا لمعنى لا يقتضي الإيجاب<sup>(٥)</sup> وأوصى فلاناً إليه: جعله وصيه يتصرف في أمره وماله وعياله بعد موته وعهد إليه، وأوصى إليه وله بشيء: جعله له، وأوصى به فلاناً: استعطفه عليه، وأوصى فلاناً بالشيء أمره به وفرضه عليه يقال أوصى الله الناس بكذا وكذا<sup>(٦)</sup>، وأوصى الرجل ووصاه عهد إليه<sup>(٧)</sup>.

ثانياً: تعريف الوصية في الشرع.

تطلق الوصية في الشرع، ويراد بها عموماً أحد معنيين؛ خاص، وعام.

● فأما على المعنى الخاص: فتعرّف بأنها "عهد خاص مضاف إلى ما

بعد الموت"<sup>(٨)</sup>

(١) لسان العرب ٢/٢٥٢٥، ١٥/٣٩٤، والمعجم الوسيط ٢/١٠٠، وتاج العروس ١/٨٦٤٨.

(٢) المصباح المنير ٢/٦٦٢.

(٣) تاج العروس ١/٨٦٤٨.

(٤) المعجم الوسيط ٢/١٠٠.

(٥) المصباح المنير ٢/٦٦٢.

(٦) المعجم الوسيط ٢/١٠٠.

(٧) لسان العرب ١٥/٣٩٤.

(٨) نيل الأوطار ١١/٢٥٣.

أو "الأمر بالتصرف بعد الموت والوصية بالمال هي التبرع به بعد الموت"<sup>(١)</sup>  
 كأن يقول: إذا متّ فأعطوا فلانا من مالي كذا، أو أعطوا فلانا قطعة من  
 أرض قدرها كذا. وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ  
 الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ  
 كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ  
 وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ  
 مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ  
 امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُشُ فَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ  
 شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاعَرٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
 حَلِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ يبني ليلتين وله شيء يريد  
 أن يوصيَ فيه إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه»<sup>(٤)</sup>، وقوله: «إنا لله أعطى كالذي حق  
 حقه فلا وصية لوارث»<sup>(٥)</sup>.

(١) العدة شرح العمدة ٥٥/٢.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٠.

(٣) سورة النساء آية ١٢.

(٤) متفق عليه رواه البخاري باب الوصايا رقم الحديث ٢٧٣٨، ومسلم باب الوصية بالثلث رقم  
 الحديث ١٦٢٧.

(٥) رواه الترمذي باب ما جاء لا وصية لوارث رقم الحديث ٢٠٤٧ وابن ماجه باب لا وصية لوارث  
 رقم الحديث ٢٧١٢.

● وأما على المعنى العام: فتُعَرَّفُ بأنها "العهد بالشيء على وجه الاهتمام"<sup>(١)</sup>.

كما جاء في تفسير القرطبي: "الوصية الأمر المؤكّد المقرّر"<sup>(٢)</sup>.

وعرفها الحافظ ابن حجر فقال: "ما يقع به الزجر عن المنهيات والحثّ على المأمورات"<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: تعريف الوصية في الاصطلاح:

عرفت الوصية في الاصطلاح بتعاريف عدّة منها:

عرّفها الرّاغب -رحمه الله- بقوله: "الْوَصِيَّةُ التَّقَدُّمُ إِلَى الْغَيْرِ بِمَا يَعْمَلُ بِهِ مُقْتَرِنًا بِوَعْظٍ"<sup>(٤)</sup>.

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِنَبِيِّنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَصَلَتْ لَكُمْ أَلْسِنُ الْغَيْثِ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

وعرّفها الألوسي -رحمه الله- بقوله: "هي التقدّم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة، سواء كان ذلك حالة الاحتضار أو لا، وسواء كان ذلك التقدّم بالقول أو بالدلالة"<sup>(٦)</sup>. وقيل: "هي نوع من الأدب، غايته التوجيه والإرشاد، والحثّ على اكتساب المحامد، أو التبصير بحسن السياسة، أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق"<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر القول المفيد شرح كتاب التوحيد ٣٩/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣٤/٧.

(٣) فتح الباري ٤١٩/٥.

(٤) نقلاً عن تفسير المنار ٣٣٢/٤.

(٥) سورة البقرة آية ١٣٢.

(٦) روح المعاني ٣٨٩/١.

(٧) وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة نقدية، لرونك توفيق ص ١٤.

فهذه التعاريف متقاربة، تبين أسس الوصية؛ حيث تقوم على التوجيه والإرشاد، لما فيه صلاح العبد، مقرونة بالوعظ والترغيب والترهيب.

### رابعاً: الألفاظ ذات الصلة بمصطلح الوصية:

#### ١- الموعظة:

الموعظة في اللغة تأتي بمعنى: التذكير، والتخويف، والإنذار، والنصح، والوعظ المقرون بالتخويف، والتذكير بعواقب الأمور<sup>(١)</sup>.

وفي الشرع: قال ابن القيم -رحمه الله-: "الموعظة الحسنة هي: الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة"<sup>(٢)</sup>، وقال القرطبي -رحمه الله-: «الموعظة الحسنة هي: الدعوة إلى الله عز وجل بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف»<sup>(٣)</sup>.

الفرق بين الموعظة والوصية: أنهما يتفقان من حيث إن كلاهما أسلوب يهدف إلى إيصال الخير للغير والتوجيه والإرشاد ويختلفان من حيث إن السوعظ خاص بترقيق القلوب وتهيتها لقبول الحق، أما الوصية فهي الخير المراد إيصاله. ومنه جاء قول العرباض بن سارية رضي الله عنه -قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم- يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودّع، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإيساكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ)<sup>(٤)</sup>.

(١) معجم مقاييس اللغة ١٢٦/٦ لسان العرب ٤٦٦/٧ كتاب العين للفراهيدي ٢٢٨/٢

(٢) مفتاح دار السعادة ١٥٨/١ .

(٣) جامع الأحكام ٢٠٠/١٠ .

(٤) رواه الترمذي في الجامع باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث ٢٦٧٦ وقال:

حديث حسن صحيح ج ١ ص ١٥-١٦ وابن ماجة في سننه المقدمة باب إتباع سنة الخلفاء

الراشدين المهديين حديث ٤٢ و٤٣. وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل ج ٨ ص ١٠٧-

١٠٩ برقم ٢٤٥٥.

## ٢- الإنذار:

الإنذار لغة: هو التخويف، والإعلام، والتحذير، والإبلاغ<sup>(١)</sup>  
 أما اصطلاحاً: فقد عرّفه المناوي بقوله: "الإنذار: هو الإعلام بما يحذر، ولا يكاد يكون إلّا في تخويف يسع زمانه الاحتراز (منه)، فإن لم يسع كان إشعاراً"<sup>(٢)</sup>.  
 وقال الكفوي رحمه الله: "الإنذار: هو إبلاغ الأمر المخوف منه، والتّهديد (به)، والتّخويف منه، قال: وذكر الوعيد مع الإنذار واجب لا مع التّهديد"<sup>(٣)</sup>.  
 الفرق بين الإنذار والوصية: أن الإنذار لا يكون إلا منك لغيرك. وتكون الوصية منك لنفسك ولغيرك؛ تقول أوصيت نفسي كما تقول أوصيت غيري. ولا تقول أنذرت نفسي، ومنه قول الخطيب أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وهي من أركان الخطبة كما بين ذلك الإمام النووي رحمه الله-<sup>(٤)</sup>.  
 والإنذار لا يكون إلا بالزجر عن القبيح وما يعتقّد المنذر قبحه؛ والوصية تكون بالحسن والقبيح لأنه يجوز أن يوصي الرجل الرجل بفعل القبيح، كما يوصي بفعل الحسن، ولا يجوز أن ينذره إلا فيما هو قبيح، وقيل النذارة نقيضة البشارة وليست الوصية نقيضة البشارة<sup>(٥)</sup>.

## ٣- النصيحة:

النصح في اللغة مشتق من: نصح، ينصح، نصحا، ونصيحة<sup>(٦)</sup>.  
 قال ابن فارس: النون والصاد والحاء أصل يدل على ملائمة بين شيئين، وإصلاح لهما"<sup>(٧)</sup>.

(١) لسان العرب ٥/٢٠٠ وتاج العروس ١٤/٢٠١.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٦٤.

(٣) الكليات للكفوي ١/٣٣٨.

(٤) انظر المجموع ٤/٣٤٩.

(٥) معجم الفروق اللغوية للعسكري ص ٥٢.

(٦) لسان العرب ٢ ص ٦١٥.

(٧) معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ٣٤٨.



والناصح: الخالص من العسل وغيره، مثل الناصع. وكلُّ شيء خَلَصَ فقد نَصَح. وانتَصَحَ فلانٌ: أي قبل النصيحة، ومنه التوبة النَّصوح، وهي الصادقة<sup>(١)</sup>. فمدار النصح في اللغة على الإخلاص والصدق.

**أما في الاصطلاح:** قال القرطبي -رحمه الله-: ( النصح هو: خلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة بخلاف الغش)<sup>(٢)</sup>.

وقال النووي -رحمه الله-: (النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، فشبه الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلال الثوب.

قال: وقيل إنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع، شبهه والتخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط)<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن رجب -رحمه الله-: "النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً"<sup>(٤)</sup>.

### الفرق بين النصيحة والوصية:

بين النصيحة والوصية تقارب في المعنى، فجميعها يراعى فيه إرادة الخير للمنصوح أو الموصى ودعاؤه إلى ما فيه صلاحه، بيد أن النصيحة يراعى فيها قيد الإخلاص وضدّها الغش، أمّا الوصية فيراعى فيها المحبة والتأكيد ومزيد الاهتمام، وكلاهما يقتضي طرفين أحدهما معطٍ والآخر متلقٍ فالمعطي هو الناصح أو الموصي، أمّا المتلقي فهو المنصوح أو الموصى، أمّا في التواصي فإن كلا الطرفين معطٍ ومتلقٍ في آن واحد، لأنه يوصي غيره ويوصيه غيره في حال حياتهما<sup>(٥)</sup>.

(١) الصحاح ج ٢ ص ٢١١.

(٢) تفسير القرطبي ( الجامع لأحكام القرآن ) للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ج ٧ ص ٢٣٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ج ٢ ص ٣٧.

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ص ٧٦.

(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- ٣٤٨٩/٨.

## خامساً: أهمية وصية الأولاد

كما أن للوالدين على الأولاد حقاً فكذلك على الوالدين حق للأولاد، وكما أن الله عز وجل أمرنا ببر الوالدين أمرنا كذلك بالإحسان إلى الأولاد، فالإحسان إليهم والحرص على تربيتهم هو من أداء لأمانة، وإهمالهم والتقصير في حقوقهم غش وخيانة. وتكمن أهمية وصية الأولاد فيما يلي :

١- أنها منهج الأنبياء مع أولادهم عليهم الصلاة والسلام فهذا إبراهيم، ويعقوب عليهما السلام يوصيا أبناءهما. ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى في يعقوب -عليه السلام- حين أوصى بنيه عند موته بقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢- أنها اقتداء بالصالحين والعلماء، فقد وصى لقمان الحكيم عليه السلام ابنه، ووصى الصحابة أولادهم، وكذلك التابعين ومن سار على هذا النهج إلى يوم الدين<sup>(٣)</sup>، وقد أمرنا الله تعالى بالافتداء بهدي السلف الصالحين، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ

(١) سورة البقرة آية ١٣٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٣٣ .

(٣) من وصايا السلف لأبنائهم والتي حفظتها كتب التراجم والتواريخ:

١- فمن الصحابة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن وقاص، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، ومعاذ بن جبل، وعمر بن حبيب، وعقبة بن عامر، وعدي بن الحيار.

٢- ومن التابعين ومن تبعهم: زين العابدين، وعبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير، وطاووس بن كيسان، وعمر بن عبد العزيز، وهب بن منبه، وأكثم بن صيفي، وخالد بن صفوان، وعيينة بن أبي عمران، وعلقمة العطاردي، وأبو الأسود الدؤلي، وأسماء بن خارجة، والأشعث بن قيس، وصية وأبو الوليد الباجي (رحمهم الله أجمعين). انظر هذه الوصايا في كتاب: من وصايا الآباء للأبناء، لوائل بن حافظ بن خلف.

الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْدَرُ ۖ ﴿١﴾

٣- أن الوصايا نوع من أنواع التأديب والتربية القائم على النصح والإرشاد، وهو واجب شرعي على كل من تولى رعاية، لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة) (١).

وذكر ابن القيم -رحمه الله-: "قال بعض أهل العلم إن الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده فإنه كما أن للأب على ابنه حقا فللابن على أبيه حق فكما قال تعالى: ﴿وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣). أي علموهم وأدبوهم... فوصية الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم (٤).

٤- أنها أداء لواجب الشكر لله عز وجل على نعمة الولد، وتعاهد بما يكون سبباً في نماء هذه النعمة وصلاحها، فإن لم يتعاهدها بالنصح والتوجيه فإنها تنقلب عليه نقمة، ويصير الولد عدواً.

قال ابن القيم -رحمه الله-: (فمن أهم لتعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه فأضاعوهم صغارا فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم

(١) سورة الأنعام آية ٩٠.

(٢) رواه البخاري باب من استرعى رعية فلم ينصح رقم الحديث ٦٦١٧.

(٣) سورة لقمان آية ٨.

(٤) سورة التحريم آية ٦.

(٥) تحفة المولود بأحكام المولود ص ٢٢٩.

ينفعوا آباءهم كبارا كما عاتب بعضهم ولده على العقوق فقال يا أبت إنك عقلتني صغيرا فعقلتك كبيرا وأضعتني وليدا فأضعتك شيخا<sup>(١)</sup>.

وقد دأب العلماء في شكر هذه النعمة وكتابة الوصايا للأبناء، ومن ذلك ما كتبه عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- إلى ابنه عبد الملك عندما كان في المدينة بوصية قال فيها: (أما بعد. فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسي أنت، وإن أحق من وعى ذلك وحفظه عني أنت. إن الله له الحمد قد أحسن إلينا إحسانا كبيرا بالغا في لطيف أمرنا وعامته، وعلى الله إتمام ما غير من النعمة، وإياه نسأل العون على شكرها. فاذا ذكر فضل الله عليك وعلى أبيك<sup>(٢)</sup>).

وقد صرح ابن المقفع بأن واجب الشكر هو الوصية لابن حيث قال: (أي بني لما بشرني المولى تعالى بوجودك، ومن علي بعطائك، وقد أبلغك إلي هذه السنن والحد والرتبة بأن صرت مستعدا لقبول الآداب وقابلا لعدة الفضل، فقد وجب علي أن أودي شكرا للخالق عز وجل على هذه الموهبة الهنية والعطية السنية، وبمقتضى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، أطلب بأداء الشكر مزيد الاستماع والانتفاع ببقائك<sup>(٤)</sup>).

٥- أن في الوصية للأبناء سبيل للانتفاع بهم بعد موت العبد، لذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)<sup>(٥)</sup>.

فمن أحسن تربية ابنه ووجهه ونصحه وأوصاه فإنه سيكون له وبإذن الله عمل صالح يجري له بعد موته.

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) سورة إبراهيم آية ٧

(٤) الأدب الوجيز للولد الصغير لابن المقفع ص ٣

(٥) رواه مسلم باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد الوفاة رقم الحديث ١٢٩٧.

٦- أن نصح الولد علامة لحب الوالد له، ودليل على إثارة والإشفاق عليه والرحمة به، وإرشاده إلى ما يسعده في الدنيا والآخرة.

٧- أن بعض الأسر تميزت بالعلم والشرف والسؤدد فتريد أن يستمر ذلك في نسلها جيلا بعد جيل فيحرصون على تعليم الأبناء ما ينفعهم، ويجعلهم خير خلف لخير سلف، قال الألويسي رحمه الله:- (تواصي الأنبياء باستمساك السدين الحق الجامع لجميع أحكام الأصول والفروع ليتوارثوا الملة القويمة والشرع المستقيم نسلا بعد نسل)<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك وصية الباجي رحمه الله- لولديه: (وأعلما أننا أهل بيت لم نخلُ بفضل الله ما انتهى إلينا منه من صلاح وتدين وعفاف وتصادق)<sup>(٢)</sup>، فأهل العلم والشرف ما فعلوا ذلك إلا ليستمروا الفضل والشرف في أعقابهم بفضل الله ثم بفعل الأسباب مثل الوصية.

٨- للوصية الصادقة تأثير بالغ في النفس وهي دافع قوي لتنفيذ الموصى به.

٩- الوصية وسيلة من وسائل التقوى والتذكر والتعقل، وهي من أعظم الأساليب التربوية والتقويمية.

١٠- من الحكمة في تشريع الوصية أنها تبرأ بها ذمة الموصي مما يحدث بعد موته وبخاصة إذا كان في أماكن يكثر فيها الجهل بعقيدة التوحيد، وتنتشر فيها البدع والمخالفات.

#### سادساً: دليل مشروعية الوصية:

جاءت نصوص الكتاب والسنة، على مشروعية الوصية عامة - سواء الوصية المالية أو الوصية التأديبية الوعظية - وعلى مشروعيتها انعقد إجماع الأمة "ولن أستطرد فيها لشهرتها".

(١) روح المعاني للألويسي ٣٨٩/١.

(٢) وصية الباجي لولديه ص ٣٦.

أما دليل الكتاب: في قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١)</sup>. وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِيكُ بِهَا أَوْ دَرَبٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنِي وَإِنِّي أَنَا اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وأما دليل مشروعيتها من السنة: ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ذلك إلا وعندي وصيتي)<sup>(٥)</sup>.

أما عن الإجماع: فقد نقل ابن قدامة في المغني الإجماع على جواز الوصية حيث قال: (وأجمع العلماء في جميع الأمصار والأعصار على جواز الوصية)<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة البقرة آية ١٨٠.

(٢) سورة النساء آية ١١.

(٣) سورة المائدة آية ١٠٦.

(٤) البقرة آية ١٣٢.

(٥) متفق عليه، رواه البخاري باب الوصايا ٢٥٣٣، مسلم باب الوصية بالثلث رقم الحديث

٣٠٤٧.

(٦) المغني ٨/٣٩٠.

## نص وصية ابن الجوزي لابنه<sup>(١)</sup>: "وعليها مدار البحث".

(١) وابن الجوزي اسمه: هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق-خليفة رسول الله القرشي التيمي البكري ثم البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ صاحب التصانيف المشهورة، كنيته: أبو الفرج، لقبه: لقب بجمال الدين، غير أنه اشتهر بابن الجوزي نسبة إلى جده الأكبر (جعفر بن عبد الله) وهو الجد التاسع فهو الذي لقب بالجوزي، واختلف المؤرخون في سبب نسبة ابن الجوزي: فمنهم من قال: إن جده جعفرًا نسب إلى فرضة من فرض البصرة يقال لها: جوزة وقيل: إن جده جعفرًا نسب إلى محلة تسمى محلة الجوز، وقيل غير ذلك. ولد ابن الجوزي بدير حبيب ببغداد. واختلف في تاريخ ولادته فقيل: سنة ٥٠٠هـ، وقيل: سنة ٥٠٩هـ، وقيل: سنة ٥١٠هـ. نشأ على حب العلم فيقول -رحمه الله-: "فأقول عن نفسي وما يلزمي حال غيري: أنني رجل حبيب إلي العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحب إلي فن واحد منه، بل فنونه، ثم لم تقتصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه...". حتى تجاوزت مؤلفاته (١٠٠٠) مؤلفاً كما قال ابن تيمية -رحمه الله-، توفي ليلة الجمعة بعد المغرب في الثانية عشر من شهر رمضان المبارك سنة سبع وتسعين وخمسمائة (٥٩٧هـ) بالجانب الغربي من مدينة السلام، بدار له قرية من قبر معروف الكرخي انظر: طبقات المفسرين ٢٧٦/١. ورحلة ابن حبيب ص ١٩٦. وتذكرة الحفاظ ١٣٤٢/٤. وذيل طبقات الحنابلة ٤٠٠/١، الأنساب ٣٦٦/٣. وشذرات الذهب ٣٣٠/٤. وذيل طبقات الحنابلة ٤٠٠/١، وفيات الأعيان ١٤٢/٣. وصيد الخاطر (ص ٧٦-٧٧).، وابنه هو بدر الدين أبو القاسم علي ابن الشيخ الإمام أبي الفرج عبد الرحمن علي بن محمد بن علي الجوزي، ولد في رمضان عام ٥٥١هـ "انظر سير الأعلام ج ٢٢/ص ٣٥٢، عرف عنه طلب العلم الشرعي، وهو صحيح السماع ثقة كثير المحفوظ حسن الإيراد صاحب دعاية وطرفة "انظر سير أعلام النبلاء ج ٢٢/ص ٣٥٣، والسبب في نصح ابن الجوزي ابنه أن بدر الدين قد ترك الوعظ وطلب العلم وانتكس على عقبه، ولزم البطالة واشتغل فيما لا يجوز بل كان يسرق من كتب أبيه، وقد قيل أن أباه كان يدعوا عليه، قال ابن النجار "سمعت أباه يقول إني لأدعو عليه كل ليلة وقت السحر" أ.هـ، وهذا قبل أن يُرزق ابن الجوزي بأخيه يوسف محي الدين عام ٥٨٠هـ وكان باراً بأبيه وعلماً، قال عنه ابن السباعي: "وهو من العلماء الأفاضل، والكبراء الأمثال، أحد أعلام العلم، ومشاهير الفضل. ظهرت عليه آثار العناية الإلهية، منذ كان طفلاً. فعنى به والده. وأسمعه الحديث، ودربه من صغره في الوعظ، وبورك له في ذلك. وصار له قبول تام، وبانت عليه آثار السعادة. "انظر ذيل طبقات الحنابلة ج ١/ص ٢٨٧، والعجيب في الأمر أن هذا الابن أقصد بدر لم يستفد من هذه النصيحة بل استفاد منها أخو يوسف.

الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب، وأخرج ذريته من الترائب والأصلاب، وعضد العشائر بالقرابة والأنساب، وأنعم علينا بالعلم وعرفان الصواب، أحسن التربية في الصغر وحفظ في الشباب، ورزقنا ذريةً نرجو بهم وفور الثواب ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (١) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٢﴾ (٢) أما بعد .

فإني لما عرفتُ شرفَ النكاح وفضلَ الأولاد، ختمتُ ختمةً وسألتُ الله عز وجل أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقني إياهم فكانوا خمسة ذكورا وخمسة إناثا، فمات من الإناث اثنتان ومن الذكور أربعة، ولم يبق لي من الذكور سوى ولدي أبي القاسم، فسألتُ الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح وأن يبلِّغني فيه المني والمناجح. ثم رأيتُ منه نوعَ تَوَانٍ عن الجِدِّ في طلب العلم، فكتبتُ إليه هذه الرسالة أحثه بها على طلب العلم وأحرَّكه على سلوك طريقي في كسب العلم، وأدله على الالتجاء إلى الموفق سبحانه، مع علمي بأنه لا خاذل لمن وفق ولا مرشد لمن أضلَّ، لكن قد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (٤). ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل في فضل العقل ومسؤولية التكليف والحث على طلب الفضائل:

اعلم يا بني - وفقك الله للصواب - أنه لم يميِّزِ الآدميُّ بالعقلِ إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك وأعملْ فِكْرَكَ، واخْلُ بنفسك، تعلمْ بالدليل أنك مخلوق مكلف وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين عليهما السلام يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأن أنفاسَ الحي خطوات إلى أجله، ومقدارَ اللبث في الدنيا

(١) سورة إبراهيم آية ٤٠/٤١.

(٢) سورة العصر آية ٣.

(٣) سورة الأعلى آية ٩.

قليل، والحبس في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل، فأين لذة أمس؟ قد رحلت وأبقت ندمًا، وأين شهوة النفس؟ نكست رأسًا وأزلت قدمًا. وما سعد من سعد إلا بمخالفة هواه، ولا شقي من شقي إلا بإيثار دنياه، فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد، أين لذة هؤلاء وأين تعب أولئك؟ بقي الثواب الجزيل والذكر الجميل للصالحين، والمقالة القبيحة والعقاب الويل للعاصين، وكأنه ما شبع من شبع، ولا جاع من جاع. والكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه وأتعب نفسك، واعلم أن أداء الفرائض واجتناب المحارم لازم، فمتى تعدى الإنسان فالنار النار. ثم اعلم أن طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين، ثم الفضائل تتفاوت، فمن الناس من يرى الفضائل الزهد في الدنيا، ومنهم من يراها التشاغل بالتعب، وعلى الحقيقة فليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل، فإذا حصلا رفعنا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالى، وحركاه إلى محبته وخشيته والشوق إليه، فتلك الغاية القصوى، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وليس كل مريد مرادًا، ولا كل طالب واجدًا، ولكن على العبد الاجتهاد، وكل ميسر لما خلق له<sup>(١)</sup>، والله المستعان.

### الواجبات والفضائل والهمة العالية:

وأول ما ينبغي النظر فيه معرفة الله تعالى بالدليل، ومعلوم أن من رأى السماء مرفوعة والأرض موضوعة، وشاهد الأبنية المحكمة، خصوصًا جسد نفسه، علم أن لا بد حينئذ للصنعة من صانع، وللمبني من بان. ثم يتأمل دليل صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليه، وأكبر الدلائل القرآن الذي أعجز الخلق أن يأتوا بسورة من مثله. فإذا ثبت عنده وجود الخالق وصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وجب تسليم عنايه إلى الشرع، فمتى لم يفعل دل على خلل في اعتقاده. ثم ينبغي له

(١) إشارة إلى حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم - أخرجه البخاري باب موعظة المحدث عند القبر ووقوع أصحابه حوله رقم ١٣٦٢.

أن يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة، والزكاة إن كان له مال، والحج، وغير ذلك من الواجبات، فإذا عرف قدر الواجب وقام به فينبغي لذي المهمة أن يترقى إلى الفضائل، فيتشغل بحفظ القرآن وتفسيره، وبحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعرفة سيره وسير أصحابه والعلماء بعدهم، ليتخير مرتبة الأعلى فالأعلى. ولا بد من معرفة ما يقيم به لسانه من النحو ومعرفة طرف من اللغة مستعمل والفقه أم العلوم، والوعظ حلواؤها وأعمها نفعاً. وقد رتب في هذه المذكورات وغيرها من التصانيف ما يغني عن كل ما سبق من تصانيف القدماء وغيرها، بحمد الله ومنته (١)، فأغنيك عن تطلب الكتب، وجمع الهمم للتصنيف. وما تقف همة إلا لخساستها، وإلا فمتى علت المهمة لم تقنع بدون. وقد عرفت بالدليل أن المهمة مولودة مع آدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حُت سارت. ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسل المنعم، أو كسلاً فالجأ إلى الموفق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته، ومن الذي أقبل عليه فلم ير كل مراد لديه؟ ومن الذي أعرض عنه فمضى بفائدة؟ أو حظي بغرض من أغراضه؟ أو ما سمعت قول الشاعر (٢):

بالليل ما جئْتُكم زائراً إلا رأيت الأرض تُطوى لي  
ولا ثبِت العزم عن بابكم إلا تعثرت بأذيالي

**فصل واتقوا الله ويعلمكم الله :**

وانظر يا بني إلى نفسك عند الحدود، فتلح كيف حفظك لها؟ فإنه من راعي رُوعي، ومن أهمل تُرك، وإني لأذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي،

(١) قال الحافظ الذهبي رحمه الله: "وما علمت أحدا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل"

التذكرة ص ١٣٤٤.

(٢) هذه الأبيات منسوبة للمرئضي والد الإمام أبي الفضل محمد بن عبد الله الشافعي مع تغير بسيط في

سير أعلام النبلاء ٥٨/٢١.

وتسأل الموفق لي. إن أكثر الإنعام عليّ لم يكن بكسبي، وإنما هو من تدبير اللطيف بي، فإني أذكر نفسي ولي همّة عالية وأنا في المكتب ولي نحو من ست سنين، وأنا قرين الصبيان الكبار قد رُزقت عقلاً وافرًا في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع صبي قط، ولا ضحكْتُ ضحكًا جارحًا، حتى إني كنتُ ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع، ولا أتخير حلقة مشعبد، بل أطلب المحدث، فيتحدث بالسند الطويل، فأحفظُ جميع ما أسمع، وأرجع إلى البيت فأكتبه. ولقد وُفّق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر -رحمه الله-، فكان يحملني إلى الأشياخ، وأسمعي "المسند" وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يُراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثبتها، ولازمته إلى أن توفي رحمه الله، فأدركتُ به معرفة الحديث والنقل. ولقد كان الصبيان يتزلون دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغرة أخذ جزءًا، وأقعد حُجرة من الناس إلى جانب الرقة فأتشأغلُ بالعلم. ثم ألهمتُ الزهد، فسردتُ الصوم وتشأغلت بالثقل وألزمتُ نفسي صبرها، فاستمرأتُ وثمرتُ ولازمتُ، وأحببتُ السهر، ولم أقنع بفن واحد من العلم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهاد. ثم قرأت اللغة ولم أترك أحدًا ممن قد انزوى أو يعظ، ولا غريبًا يقدم إلا وأحضره وأتخير الفضائل. وكنت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حق الحق، فأحسن الله تدبري وأجراني على ما هو الأصلح لي، ودفع عني الأعداء والحساد ومن يكيدني، وهياً لي أسباب العلم، وبعث إلي الكسب من حيث لا أحتسب، ورزقني الفهم وسرعة الحفظ وجودة التصنيف، ولم يُعوزني شيئاً من الدنيا، بل ساق إلي مقدار الكفاية وأزيد، ووضع لي في قلوب الخلق من القبول فوق الحد، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته. وقد أسلم على يدي نحو من مائتين من أهل الذمة، ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف، وقد قطعتُ أكثر من عشرين ألف جُمّة. مما يتعانه الجهال، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع

نَفْسِي مِنَ الْعَذْرِ لَفَلَا أُسْبِقُ، وَكُنْتُ أَصْبَحُ وَلَيْسَ لِي مَا أَكُلُ، وَأُمْسِي وَلَيْسَ لِي شَيْءٌ، وَمَا أَذِلَّنِي اللَّهُ لِمَخْلُوقٍ، وَلَكِنَّهُ سَاقُ رِزْقِي لِصَيَانَةِ عَرَضِي، وَلَسَوْ شَرَحْتُ أَحْوَالِي لِطَالِ الشَّرْحِ، وَهَذَا أَنَا، تَرَى مَا قَدْ آلَتْ الْحَالُ إِلَيْهِ، وَأَنَا أَجْمَعُهُ لَكَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>

### فصل حفظ الأوقات واغتنام اللحظات:

فانتبه يا بني لنفسك واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين، ما دام في الوقت سعة، واسقِ غصنك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعاتك التي ضاعت، فكفى بها عظة، ذهبَتْ لَذَّةُ الْكَسَلِ فِيهَا، وَفَاتَتْ مَرَاتِبُ الْفَضَائِلِ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَحْبُونَ جَمْعَ كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَيَكُونُ عَلَى فَوَاتِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: دَخَلْنَا عَلَى عَابِدٍ مَرِيضٍ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى رَجُلِيهِ وَيَبْكِي، فَقُلْنَا: مَا لَكَ تَبْكِي؟ فَقَالَ: مَا اغْبَرَّتَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَبَكَى آخِرَ فَقِيلَ لَهُ: مَا يَبْكِيكَ؟ قَالَ: عَلَى يَوْمٍ مَضَى مَا صَمْتُهُ، وَعَلَى لَيْلَةٍ ذَهَبَتْ مَا قَمْتُهَا. وَاعْلَمْ يَا بَنِي أَنْ الْأَيَّامُ تَبْسُطُ سَاعَاتٍ، وَالسَّاعَاتُ تَبْسُطُ أَنْفَاسًا، وَكُلُّ نَفْسٍ خَزَانَةٌ، فَاحْذَرِ أَنْ تَذْهَبَ نَفْسًا فِي غَيْرِ شَيْءٍ، فَتَرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَزَانَةً فَارِغَةً فَتَنْدَمُ.

وقد قال رجل لعامر بن عبد قيس: قف أكلمك ! فقال: أمسك الشمس وقعد قومٌ عند معروف الكرخي -رحمه الله-، فقال: أما تريدون أن تقوموا، فإن ملكَ الشمس يجرُّها لا يفتر. وفي الحديث: " من قال سبحان الله وبحمده غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ " <sup>(٢)</sup>.

فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخل. وقد كان السلف يغتنمون

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه باب الاذكار رقم الحديث ٨٢٦، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أبا الزبير فمن رجال مسلم.

اللحظات، فكان كَهَمَسُ بن الحسن التميمي يختم القرآن في كل يومٍ وليلةٍ ثلاث مرات، وكان أربعون رجلاً من السلف يصلون الفجر بوضوء العشاء، وكانت رابعة لا تنام الليل، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة خفيفة وقامت فزعة وقالت لنفسها: النوم في القبور طويل.

### فصل تُشترى هذه الحياة الابدية:

ومن تفكر في الدنيا قبل أن يوجد، رأى مدة طويلة، فإذا تفكر فيها بعد أن يخرج رأى مدة قصيرة، وعلم أن اللبث في القبور طويل، فإذا تفكر في يوم القيامة، علم أنه خمسون ألف سنة، فإذا تفكر في اللبث في الجنة أو النار علم أنه لا نهاية له، فإذا عاد إلى النظر في مقدار بقائه في الدنيا — فرضنا ستين سنة مثلاً — فإنه يمضي منها ثلاثون في النوم، ونحو من خمس عشر في الصبا، فإذا حسبت الباقي، كان أكثره في الشهوات والمطاعم والمكاسب، فإذا خلص ما للآخرة وجد فيه من الرياء والغفلة كثيراً، فبماذا تشتري الحياة الأبدية، وإنما الثمن هذه الساعات؟!

### فصل الانتباه بعد الغفلة:

ولا يؤيسك يا بني من الخير ما مضى من التفریط، فإنه قد انتبه خلق كثير بعد الغفلة والرقاد الطويل، فقد حدثني الشيخ أبو حكيم عن قاضي القضاة أبي الحسن [علي بن محمد] الدامغاني رحمه الله، قال: كنت في صبوتي متشاغلاً بالبطالة غير ملتفت إلى العلم، فأحضرني أبو عبد الله [محمد بن علي الدامغاني] رحمه الله، وقال لي: يا بني إني لست أبقى لك أبداً، فخذ عشرين ديناراً وافتح دكان خباز وتكسب! فقلت: ما هذا الكلام؟! قال: فافتح دكان بزاز! فقلت: تقول هذا وأنا ابن قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني! قال: فما أراك تحب العلم! فقلت: اذكر لي الدرس الساعة، فذكر لي، فأقبلت على التشاغل بالعلم واجتهدت ففتح الله علي. وحكى لي بعض أصحاب أبي محمد [عبد الرحمن بن محمد] الحلواني رحمه الله، قال: مات أبي وأنا ابن إحدى وعشرين سنة، وكنت موصوفاً بالبطالة، فأتيت أتعاضى بعض سكان دارٍ قد ورثتها، فسمعتهم يقولون: قد جاء المدبر - أي

الربيط - فقلت لنفسي: يقال عني هذا ! فحجنت إلى والدي فقلت: إذا أردت طلي فاطليبي من مسجد الشيخ أبي الخطاب، ولازمته فما خرجت إلا إلى القضاء، فصرت قاضياً مدة. قلت: ورأيت أنه أنا وهو يفتي ويناظر.

### فصل منهج تربوي في اليوم والليلة:

فألزم نفسك يا بني الانتباه عند طلوع الفجر، ولا تتحدث بحديث الدنيا، فقد كان السلف الصالح رحمهم الله لا يتكلمون في ذلك الوقت بشيء من أمور الدنيا. وقل عند انتباهك من النوم: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرءوف رحيم"<sup>(١)</sup>، ثم قم إلى الطهارة واركع سنة الفجر وأخرج إلى المسجد خاشعاً، وقس في طريقك: "اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبعمشاي هذا إليك، إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تحيّرني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"<sup>(٢)</sup>.

واقصد الصلاة إلى يمين الإمام، فإذا فرغت من الصلاة فقل: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" عشر مرات، ثم سبّح عشراً، واحمد عشراً، وكبّر عشراً<sup>(٣)</sup>، وقرأ آية الكرسي وسلّ الله سبحانه قبول الصلاة، فإن صح لك فاجلس ذاكراً لله تعالى إلى أن تطلع الشمس وترتفع، ثم صل واركع ما كتب لك وإن كان ثمان ركعات فهو حسن<sup>(٤)</sup>.

### فصل العلم أفضل من كل نافلة :

ثم تتشاغل بما يمكن من العلوم، وأهمها تصحيح قراءة القرآن، ثم الفقه، فإذا

(١) هذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٨٢/١.

(٢) رواه أحمد في مسنده رقم ١١١٧، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه ٦٠/١. وفي الادب المفرد

ص ٤١٦

(٣) الادب المفرد ص ٤١٦.

(٤) إشارة لحديث أم هاني في عام الفتح أنه صلى الضحى ثمان ركعات وهو حديث متفق عليه رواه

البخاري برقم ١١٧٦ ومسلم ٣٣٦.

أعدت دروسك إلى وقت الضحى الأعلى، فصلّ الضحى ثماني ركعات، ثم تشاغل بمطالعة أو بنسخ إلى وقت العصر. ثم عد إلى دروسك بعد العصر إلى المغرب، وصل بعد المغرب ركعتين، تقرأ فيهما جزئين، فإذا صليت العشاء فعد إلى دروسك<sup>(١)</sup>. ثم اضطجع فسبح ثلاثاً وثلاثين، واحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبر أربعاً وثلاثين. وقل: " اللهم قني عذابك يومَ تجمعُ عبادك " <sup>(٢)</sup>. وإذا فتحت عينيك من النوم فاعلم أن النفس قد أخذت حظها فقم إلى الوضوء، وصل في ظلام الليل ما أمكن، والتوسط أن تصلي ركعتين خفيفتين، ثم بعدهما ركعتين بجزئين من القرآن، ثم تعود إلى دروس العلم، فإن العلم أفضل من كل نافلة.

### فصل الحذر من الآفات والعوائق:

وعليك بالعزلة فهي أصل كل خير، واحذر من جليس السوء، وليكن جلساؤك الكتب، والنظر في سير السلف، ولا تشتغل بعلم حتى تُحكّم ما قبله، وتلمح سير الكاملين في العلم والعمل، ولا تقنع بالدون، فقد قال الشاعر في ذلك: ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام واعلم أن العلم يرفع الأراذل، فقد كان خلق كثير من العلماء لا نسب لهم يُذكر، ولا صورة تُستحسن، وكان عطاء بن أبي رباح -رحمه الله- أسود اللون ومستوحش الخلقة، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ومعه ولده، فجعلوا يسألونه عن المناسك، فحدثهم وهو معرض عنهم بوجهه، فقال سليمان الخليفة لولديه: " قوما ولا تنيا ولا تكاسلا في طلب العلم، فما أنسى ذلنا بين

(١) والناس في هذا يختلفون كل بحسب مراده وتوجهه، قال المقدسي في منهاج القاصدين "واعلم أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً، أو متعلماً، أو والياً، أو محترفاً، أو مستغرقاً بمحبة الله عز وجل مشغولاً به عن غيره ( مختصر منهاج القاصدين "ص ٧٥.

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم ٣٦٠٦

يَدِي هذا العبد الأسود" (١).

وكان الحسن البصري - رحمه الله - مولى - أي مملوكاً - وابن سيرين ومكحول وخلق كثير، وإنما شرفوا بالعلم والتقوى.

### فصل العفة عما في أيدي الناس:

واجتهد يا بني في صيانة عرضك من التعرض لطلب الدنيا والذل لأهلها، واقنع تَعَزَّ، فقد قيل: من قنع بالخبز والبقل لم يستعبده أحد. وجاز أعرابي بالبصرة فقال: من سيد هذه البلدة؟ فقيل له: الحسن البصري، قال: وبم سادهم؟ قالوا: استغنى عن دنياهم وافتقروا إلى علمه (٢). واعلم يا بني أن أبي كان موسراً وخلف ألوفاً من المال، وكان أبوك طفلاً، فأنفق عليه من ذلك المال إلى أن بلغ، ولم يرَ بعد بلوغه سوى دارين، كان يسكن واحدة ويأخذ أجرة الأخرى، ثم أُعطي نحو عشرين ديناراً، وقيل له: هذه التركة كلها، فأخذتُ الدنانير واشترت بها كتباً من كتب العلم، وبعث الدارين وأنفقتُ ثمنهما في طلب العلم، ولم يبق لي شيء من المال، وما ذلَّ أبوك في طلب الدنيا كذل غيره، ولا خرج يطوف البلدان كغيره من الوُعَاط، ولا رأى أكابرُ البلدان رِقاعه عندهم يستعطيهم، وأموره تجري على السداد ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٣).

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٣١/١ وبوب عليه بقوله "ذكر من ارتفع من العبيد حتى جلس مجالس الملوك".

(٢) روى القصة ابن رجب في كتابه جامع العلوم والحكم ص ١٥٤.

(٣) سورة الطلاق آية ٣/٢

## فصل متى صحت التقوى رأيت كل الخير:

يا بني! ومتى صحت التقوى رأيت كل خير، فالتقي لا يرأى الخلق ولا يتعرض لما يؤذي دينه، ومن حفظ حدود الله حفظ. قال النبي صلى الله عليه وسلم- لابن عباس -رضي الله عنه-: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك"<sup>(١)</sup>. واعلم يا بني أن يونس -عليه السلام- لما كانت ذخيرته خيراً نجا بها من الشدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾<sup>(٢)</sup>.

وأن فرعون لما لم تكن له ذخيرة خير لم يجد في شدته مخلصاً، ف قيل له: ﴿الْأَن تَعَصِيَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾﴾<sup>(٣)</sup> فاجعل لك ذخائر خير من تقوى تجد تأثيرها.

وقد جاء في الحديث: "ما من شاب اتقى الله تعالى في شبابه إلا رفعه الله تعالى في كبره"<sup>(٤)</sup>.

"قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٥﴾﴾". واعلم يا بني أن أوفى الذخائر غرض الطرف عن محرم، وإمساك اللسان عن فضول كلمة، ومراعاة حد، وإيثار الله سبحانه وتعالى على هوى النفس، قد عرفت حديث الثلاثة الذين دخلوا إلى غار فانطبقت عليهم صخرة، فقال أحدهم: اللهم

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب الذبائح أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله رقم: ٢٥٠٠، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده رقم: ٢٧٦٣ والحاكم في المستدرک رقم: ٦٣٠٤.

(٢) سورة الصافات آية ١٤٣/١٤٤.

(٣) سورة يونس آية ٩١.

(٤) ذكره أبو نعيم في الحلية ١٣٩/٤ بنحوه.

(٥) سورة يوسف آية ٢٢.

إنه كان لي أبوان وأولاد فكنت أقف بالحليب على أبوي فأسقيهما قبل أولادي، فإن كنتُ فعلتُ ذلك لأجلك فافرج عنا ؛ فانفرج ثلث الصخرة، فقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرتُ أجيراً فتسخَّطَ أجره، فأتَّجرتُ له به فجاء يوماً فقال: ألا تخاف الله؟! فقلت: انطلق إلى تلك البقر ورعاها فخذها، فإن كنتُ فعلتُ ذلك لأجلك فافرج عنا ؛ فانفرج ثلث الصخرة، فقال الآخر: اللهم إني علقتُ بينت عم لي، فلما دنوتُ منها قالت: اتق الله ولا تفضَّ الحاتمَ إلا بحقه، فقامت عنها، فإن كنت فعلت لأجلك فافرج عنا ؛ فرُفعت الصخرة وخرجوا<sup>(١)</sup>.

ورؤي سفيان الثوري -رحمه الله- في المنام ف قيل له: ما فعل الله تعالى بك ؟ قال: ما كان إلا أن وُضعتُ في اللحد فإذا أنا بين يدي رب العالمين، فأمرَ بي إلى الجنة، فدخلتُ فإذا أنا بقائلٍ يقول: سفيان ؟ قلت: سفيان، قال: تذكرُ يومَ أثرتَ الله تعالى على هواك ؟ قلت: نعم ! فأخذتني صواني النثارِ من الجنة.

### فصل من سير السلف الصالح:

وينبغي أن تسمو همتك إلى الكمال، فإن خلقتَ وقفوا مع الزهد، وخلقاً تشاغلوا بالعلم، وندر أقوامٌ جمعوا بين العلم الكامل والعمل الكامل. واعلم أني قد تصفحتُ التابعين ومن بعدهم فما رأيت أحظى بالكمال من أربع أنفس: سعيد بن المسيب، وسفيان الثوري، والحسن البصري، وأحمد بن حنبل ؛ وقد كانوا رجالاً إنما كانت لهم همٌّ ضعفت عندنا، وقد كان في السلف خلقٌ كثير لهم همٌ عالية، فإذا أردت أن تنظر إلى أحوالهم فانظر في كتاب " صفة الصفوة "، وإن شئت " أخبار سعيد " و " أخبار سفيان " و " أخبار أحمد بن حنبل "، فقد جمعتُ لكل واحدٍ منهم كتاباً.

(١) متفق عليه رواه البخاري في باب من استأجر أجيراً فترك أجره .. رقم الحديث ٢٢٧٢، ومسلم

باب قصة أصحاب الغار الثلاثة رقم الحديث ٢٧٤٣.

### فصل الحفظ رأس مالك:

وقد علمت يا بني أنني قد صنفت مائة كتاب<sup>(١)</sup>، فمنها " التفسير الكبير " عشرون مجلداً، و " التاريخ " عشرون مجلداً، و " تهذيب المسند " عشرون مجلداً، وباقي الكتب بين كبار وصغار يكون خمس مجلدات، ومجلدين وثلاثة، وأربعة، وأقل وأكثر ؛ كفيتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهمم في التأليف. فعليك بالحفظ، فإن الحفظ رأس المال والتصرف ربح، وصدق في الحالين في الالتجاء إلى الله سبحانه، فراع حدوده، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّنَصِّرُوا اللَّهُ يَنْصُرَكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

### فصل العلم والعمل متلازمان:

وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به، فإن الداخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدنيا، قد أعرضوا عن العمل بالعلم، فمُنِعُوا البركة والنفع به. وإياك أن تتشاغل بالتعب من غير علم، فإن خلقاً من المتزهدين والمتصوفة ضلوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم. واستر نفسك بثوبين جميلين، لا يُشهرانك بين أهل الدنيا برفعتهما، ولا بين المتزهدين بضعتيهما، وحاسب نفسك عند كل نظرة وكلمة وخطوة، فإنك مسؤول عن ذلك، وعلى قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون، ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل الماء

(١) لعل هذه الوصية كُتبت عند تأليف مائة كتاب، وإلا فإنه صنف أكثر من ذلك بكثير وقد عد له

شيخ الاسلام ابن تيمية أكثر من ألف مصنف، وارجع إلى أسماء مصنفاته في سير أعلام النبلاء و

ذيل طبقات الحنابلة

(٢) سورة محمد آية ٧.

(٣) سورة البقرة آية ١٥٢.

(٤) سورة البقرة آية ٤٠.

عن الحجر؛ فلا تعظن إلا بنية، ولا تمشين إلا بنية، ولا تأكلن إلا بنية، ومع مطالعات أخلاق السلف ينكشف لك الأمر.

### فصل من روائع التصانيف:

وعليك بكتاب "منهاج المريدين" فإنه يعلمك السلوك، فاجعله جليساك ومعلمك، وتلمح كتاب "صيد الخاطر" فإنك تقع بواقعات تُصلحُ أمرَ دينك ودنياك، واحفظ كتاب "جنة النظر" فإنه يكفي في تلقيح فهمك للفقهاء، ومتى تشاغلْتَ بكتاب "الحقائق" أطلعتك على جمهور الحديث، وإذا التفتَ إلى كتاب "الكشف" أبان لك مستور ما في الصحيحين من الحديث، ولا تشاغلن بكتب التفاسير التي صنفتها الأعاجم، وما ترك "المغني" و " زاد المسير" حاجة إلى شيء من التفاسير، وأما ما جمعه لك من كتب الوعظ فلا حاجة بعدها إلى زيادة أصلا.

### فصل صفة الواعظ والنافع:

وكن حسنَ المداراة للخلق، مع شدة الاعتزال عنهم، فإن العزلة راحة من خلطاء السوء، ومُبقية للوقار، فإن الواعظ خاصة ينبغي أن لا يرى مُتَبَذلاً، ولا ماشياً في سوقٍ ولا ضاحكاً، ليحسنَ الظنُّ به، فينتفع بوعظه. فإذا اضطررت إلى مخالطة الناس فخالطهم بالحلم عنهم، فإنك إن كشفت عن أخلاقهم لم تقدر على مداراتهم.

### فصل أداء الحقوق:

وأدِّ إلى كل ذي حق حقه، من زوجة أو ولد أو قرابة، وانظر كل ساعة من ساعاتك بماذا تذهب، فلا تُودِعْها إلا أشرف ما يمكن، ولا تهمل نفسك وعودها أشرف ما يكون من العمل وأحسنه، وابعث إلى صندوق القبر ما يسرك يوم الوصول إليه، كما قيل:

يا مَن بـدنياه اشـتغل      و غـرّه طـول الأمل  
الموت يأتـي بغـتة      والقـبر صـندوق العـمل

وراع عواقب الأمور يهْنُ عليك الصبرُ عن كل ما تشتهي وما تكره، وإن وجدتَ من نفسك غفلة فاحملها إلى المقابر وذكّرْها قربَ الرحيل، ودبّرْ أمرك - واللهُ المدبّرُ - في إنفاقك من غير تبذير، لئلا تحتاج إلى الناس، فإن حفظَ المال من الدين، ولأن تُخَلِّفَ لورثتك خير من أن تحتاج إلى الناس<sup>(١)</sup>.

### فصل خاتمة حسنة:

يا بني واعلم أننا من أولاد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، وأبونا القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وأخباره موثقة في كتاب "صفة الصفوة"، ثم تشاغل سلفنا بالتجارة والبيع والشراء، فما كان من المتأخرين مَنْ رُزِقَ همّةً في طلب العلم غيري، وقد آل الأمر إليك، فاجتهد أن لا تحيّب ظني فيما رجوتُه فيك ولك. وقد أسلمتكَ إلى الله سبحانه، وإياه أسأل أن يوفقك للعلم والعمل، وهذا قدر اجتهادي في وصيتي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) إشارة إلى حديث سعد بن أبي وقاص "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكفون الناس" متفق عليه رواه البخاري باب رثاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لسعد ج ٥ ص ٤٣ رقم ١٢١٣ ورواه مسلم كتاب الوصية باب الوصية بالثلث ج ٨ ص ٣٩٥ رقم

## المبحث الأول

### المضامين الدعوية في وصية ابن الجوزي لولده

جاءت وصية ابن الجوزي رحمه الله لولده؛ شاملة في مضامينها، لمراتب الدين الثلاثة: عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً؛ إضافة إلى المضامين العلمية المتمثلة في الحث على طلب العلم، ورسم المنهج الأمثل في ذلك؛ وفيما يأتي إبراز لمعالم الشمولية الموضوعية في وصية ابن الجوزي -رحمه الله- لولده:

#### المطلب الأول

##### المضامين العقدية

إن مدار الوصايا الشرعية؛ للأنبياء والصالحين لأبنائهم وأتباعهم، هي الوصية بتقوى الله وبتوحيده والنهي عما يضاده من الشرك والعصيان؛ والشواهد على ذلك كثيرة في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن نماذجها: قال تعالى:

﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَنْبِيُّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

قال الألوسي رحمه الله:- "والتوصية التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة. لبيان تواصي الأنبياء باستمساك الدين الحق الجامع لجميع أحكام الأصول والفروع ليتوارثوا الملة القويمة والشرع المستقيم نسلاً بعد نسل، وذكر يعقوب الدين في توصيته لبنيه وهو والملة أخوان.. وخص البنين لأنه عليهم أشفق وهم بقبول وصيته أجدر ولأن النفع بهم أكثر"<sup>(٢)</sup>. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة البقرة آية ١٣٢.

(٢) روح المعاني ١٥/٢.

(٣) سورة لقمان آية ١٣.

قال ابن كثير -رحمه الله-: "يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده.. وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } أي: هو أعظم الظلم"<sup>(١)</sup>.

وهكذا جاءت السنة النبوية بالوصية بالتقوى والإيمان في مقام تعليم الصبية والأولاد، وأول ما يلقن الطفل كلمة التوحيد، ويغرس في قلبه الإيمان؛ فإذا وقر الإيمان في قلبه علّم القرآن؛ فيزداد يقيناً وبصيرة؛ وفي هذا المسلك اقتفاء لهدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعن جندب بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: "كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ونحن فتيان حزاورة"<sup>(٢)</sup>.

فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً"<sup>(٣)</sup>. وفي حديث ابن عباس -رضي الله عنه- المشهور أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له موصياً: "يا غلام أني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك..."<sup>(٤)</sup>. وقد ضمّن ابن الجوزي -رحمه الله- وصيته لولده الوصية بتقوى الله وتوحيده ونبذ الشرك وأسبابه؛ وهذه معالم الوصية بالتقوى والتوحيد من خلال ما وردة في وصيته<sup>(٥)</sup>:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٣٦/٦.

(٢) أي: قاربنا البلوغ، انظر: "النهاية في غريب الأثر" ٩٥٢/١.

(٣) رواه ابن ماجة في سننه المقدمة باب في الإيمان رقم الحديث ٦٠ والطبراني في المعجم الكبير رقم الحديث ١٦٧٩، والبيهقي في الشعب رقم الحديث ٥١، وصححه الألباني في "صحيح ابن ماجة" ١٦/١.

(٤) رواه الترمذي في سننه: كتاب الذبائح، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم: ٢٥٠٠، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده، رقم الحديث ٢٧٦٣، والحاكم في المستدرک، رقم الحديث ٦٣٠٤.

(٥) وقد أوردت وفق تسلسلها في الوصية أولاً بأول.

## ١- صرف الحوائج لله وحده:

من أصول الإيمان دعاء الله وحده، وصرف الحوائج إليه دون غيره؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وفي وصية ابن عباس -رضي الله عنه- المتقدمة: "وإذا سألت فاسأل الله".

وابن الجوزي -رحمه الله- قد ألمح إلى هذا المعنى في مستهل وصيته وفي أنائها وخاتمتها بأساليب متعددة:

حكاية الحال: في قوله: "وسألتُ الله عز وجل أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقني إياهم .. فسألتُ الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح وأن يبلِّغني فيه المنى والمناجح"، وقوله في ختام وصيته: وقد أسلمتك إلى الله سبحانه، وإياه أسأل أن يوفقك للعلم والعمل، وهذا قدر اجتهادي في وصيتي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". وحكاية الحال هي من باب التعليم بالقدوة الحسنة.

الوصية بالالتجاء إلى الله في قوله: "وأدُلّه على الالتجاء إلى الموفق سبحانه، مع علمي بأنه لا خاذل لمن وفق ولا مرشد لمن أضل". ويقول أيضاً: "ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسل المنعم، أو كسلاً فالجأ إلى الموفق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولا يفوتك خيرٌ إلا بمعصيته، ومن الذي أقبلَ عليه فلم يرَ كلَّ مرادٍ لديه؟ ومن الذي أعرض عنه فمضى بفائدة؟ أو حظي بغرضٍ من أغراضه؟".

## ٢- زرع رقابة الله في النفس:

من أوثق عرى الإيمان ومنازل الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وتستحضر رقابته في كل شأنك، كما جاء في حديث جبريل المشهور: "قال: فأخبرني عن

(١) سورة غافر آية ٦

الإحسان ؟، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك<sup>(١)</sup>.

وابن الجوزي -رحمه الله- قد أكد على هذا الأصل في وصيته في مواطن كثيرة: منها قوله: "وأن الملكين عليهما السلام يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأن أنفاس الحي خطوات إلى أجله".

### ٣- التسليم لقضاء الله وقدره:

من أصول الإيمان والتسليم لقضاء الله وقدره، كما جاء في حديث جبريل المشهور: "فأخبرني عن الإيمان؟، قال:.. . وتؤمن بالقدر خيره وشره"<sup>(٢)</sup>. والتسليم للقضاء والقدر؛ يبعث في القلب راحة وطمأنينة؛ ورضا بالله عز وجل.

وقد نبّه ابن الجوزي إلى ضرورة التسليم بقضاء الله وقدره، في قوله: "وكلّ ميسّر لما خُلق له، والله المستعان". فما على العبد إلاّ التسليم، مع بذل الأسباب والله هو الموفق والمسدد.

### ٤- التوحيد هو أوّل مطلوب وأفضل مرغوب:

أوّل ما يكلف به العبد، ويخاطب به المكلف هو توحيد الله جلّ وعلا، ونبذ الشرك، وهذا سمّت الأنبياء ونهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>(٤)</sup>.

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يرسل الدعوة آمراً إياهم بالبداة في الدعوة إلى التوحيد؛ لأنه مدار الفلاح، وأساس النجاح في الدنيا والآخرة، وقبل

(١) رواه مسلم باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ج ١ ص ٨٧ رقم الحديث ٩.

(٢) الحديث السابق.

(٣) سورة النحل الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

الأعمال منوط بصلاح التوحيد، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

ولما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- معاذ بن جبل -رضي الله عنه- إلى اليمن داعياً قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله....»<sup>(٢)</sup>.

وابن الجوزي قد ركّز في وصيته على ضرورة إصلاح التوحيد أولاً؛ فقال - رحمه الله -: "وأول ما ينبغي النظر فيه معرفة الله تعالى بالدليل، ومعلوم أن من رأى السماء مرفوعة والأرض موضوعة، وشاهد الأبنية المحكمة، خصوصاً جسد نفسه، علم أن لا بد حينئذ للصنعة من صانع، وللمبني من بان". فأشار إلى أن أول مطلوب على المكلف هو معرفة الله بأسمائه وصفاته؛ وذلك من خلال النظر في الآيات المشهودة من خلق السماوات والأرض، والنظر في آيات الله المتلوّة، من خلال كتابه الكريم، فيعرف الله أولاً بربوبيته وملكه وتديره، ثم يرتقى بعد ذلك لتوحيد الألوهية.

## ٥- الإيمان بالنبوة:

الإيمان بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه مرسل من ربّ العالمين لهداية الخلق أجمعين، وأنه خاتم المرسلين، هو شرط شهادة التوحيد، ولا يقوم للتوحيد قائم إذ انخرم هذا الأصل والركن. والإيمان بالأنبياء والرسل أصل من أصول الإيمان التي قرّرها القرآن والسنة. وابن الجوزي رحمه الله حثّ في وصيته على وجوب الإيمان بالنبي إيماناً جازماً، وذلك من خلال النظر في معجزاته وآياته الدالة على صدقه، وأعظمها

(١) سورة الزمر آية ٦٥

(٢) متفق عليه رواه البخاري باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ج ٥ ص ٢٨٩ رقم الحديث

١٣٦٥، واللفظ له، ومسلم باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ج ١ ص ١١٢ رقم

الحديث ٢٨.

القرآن الكريم. قال -رحمه الله-: "ثم يتأمل دليل صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- إليه، وأكبر الدلائل القراءان الذي أعجز الخلق أن يأتوا بسورة من مثله". كما بين رحمه الله أن لازم الإيمان بالنبي هو التسليم لشرعه والإذعان لأمره؛ إذ لا إيمان مع الاعتراض على شرعه وتنكب منهجه. كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>(١)</sup> قال -رحمه الله-: "فإذا ثبت عنده وجود الخالق وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وجب تسليم عِنايه إلى الشرع، فمتى لم يفعل دل على خلل في اعتقاده".

#### ٦- فضل التقوى:

لازم الإيمان وفسطاطه هو تقوى الله وخشيته، و"التقوى اسم جامع لطاعة الله، والعمل بها في ما أمر به، أو نهي عنه، فإذا انتهى المؤمن عن ما نهاه الله، وعمل بما أمره الله، فقد أطاع الله واتقاه، والتقوى اسم أيضاً لخشية الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(٢)</sup>، فمن خشي الله واتقاه، وانتهى عن ما نهاه، وقام بما افترض عليه فهو العالم بشهادة الله له بذلك"<sup>(٣)</sup>.

وقد أشاد ابن الجوزي -رحمه الله- في وصيته بفضل التقوى؛ مبيناً أنها مدار الخير كله، وأن ذهابها مؤذن بالوبال والهلاك. قال -رحمه الله-: "يا بني! ومتى صحت التقوى رأيت كل خير، فالتقي لا يرائي الخلق ولا يتعرض لما يؤذي دينه، ومن حفظ حدود الله حفظ". "فمن نور الله قلبه بالتقوى قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فاستقام قلبه، واطمأنت به نفسه، وتفجرت ينابيع الحكمة من لسانه، فكان مسدداً في قوله

(١) سورة النساء آية ٦٥.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٣) الاستذكار لابن عبد البر ٥٨٧/٨.



وفعله، ودعوته وإرشاده، على بصيرة ونور من الله تعالى" (١).

---

(١) انظر: الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي، ص ٩٣.

## المطلب الثاني

### المضامين التعبدية

الإيمان اعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وقول باللسان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان<sup>(١)</sup>؛ فالعبادة الخالصة لله وحده هي ترجمة الإيمان الصادق بالله وحده لا شريك له، فهي شجرة باسقة طلعتها. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ووصية ابن الجوزي - رحمه الله - لابنه لم تكن خلواً من المضامين التعبدية، وإنما شملت جوانب عديدة من النصائح في المجال التعبدية، رسم بها المنهج السوي في عبادة المؤمن ربه منذ يقظته إلى منامه، موشحاً إياها بما ينبغي التلطف به من الأذكار الشرعية، على النحو الآتي:

#### ١- الحث على الذكر عند الاستيقاظ:

قال - رحمه الله -: "وقل عند انتباهك من النوم: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم"<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر العقيدة الواسطية بشرح المراس ص ١٦١، الإيمان لابن مندة ج ١ ص ٣١٥-٣٦٣، وشرح اعتقاد أهل السنة للالكائي ج ٢ ص ٩١١-٩٣٣.

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦

(٣) سورة إبراهيم آية ٢٤ - ٢٥.

(٤) هذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٨٢/١.

## ٢- الحث على المحافظة على الطهارة والسنن الراقبة وصلاة الجماعة:

قال -رحمه الله-: "ثم قم إلى الطهارة واركع سنة الفجر واخرج إلى المسجد خاشعاً، وقل في طريقك: "اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبممشاي هذا إليك، إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، خرجتُ اتقاءً سنخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تحيرني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"<sup>(١)</sup>.

## ٣- الحرص على الأذكار دبر الصلوات:

قال -رحمه الله-: "واقصد الصلاة إلى يمين الإمام، فإذا فرغت من الصلاة فقل: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"<sup>(٢)</sup> عشر مرات، ثم سبِّح عشراً واحمد عشراً، وكبِّر عشراً، واقرأ آية الكرسي وسلِّم الله سبحانه قبول الصلاة، فإن صح لك فاجلس ذاكراً لله تعالى إلى أن تطلع الشمس وترتفع، ثم صل واركع ما كتب لك وإن كان ثمان ركعات فهو حسن"<sup>(٣)</sup>.

## ٤- الحث على الجمع بين العلم والتعبّد:

يقول رحمه الله: "ثم تشاغل بما يمكن من العلوم، وأهمها تصحيح قراءة القرآن، ثم الفقه، فإذا أعدت دروسك إلى وقت الضحى الأعلى، فصلّ الضحى ثمان ركعات، ثم تشاغل بمطالعة أو بنسخ إلى وقت العصر، ثم عد إلى دروسك بعد العصر إلى المغرب، وصل بعد المغرب ركعتين، تقرأ فيهما جزئين، فإذا صليت

(١) رواه أحمد في مسنده رقم ١١١٧٢، وضعه الألباني في ضعيف ابن ماجه ٦٠/١. وفي الادب المفرد ص ٤١٦

(٢) رواه أحمد في مسنده رقم ١١١٧٢، وابن ماجه في سننه، وضعه الألباني في ضعيف ابن ماجه ٦٠/١. وفي الادب المفرد ص ٤١٦

(٣) إشارة لحديث أم هاني في عام الفتح أنه صلى الضحى ثمان ركعات وهو حديث متفق عليه رواه البخاري صلاة الضحى في السفر برقم ١١٠٥ ومسلم باب استحباب صلاة الضحى ٣٣٦.

العشاء فعد إلى دروسك، ثم اضطجع فسبح ثلاثاً وثلاثين، واحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبر أربعاً وثلاثين، وقل: "اللهم قني عذابك يومَ تجمعُ عبادك" <sup>(١)</sup>. "وإذا فتحت عينيك من النوم فاعلم أن النفس قد أخذت حظها فقم إلى الوضوء، وصل في ظلام الليل ما أمكن، والتوسط أن تصلي ركعتين خفيفتين، ثم بعدهما ركعتين بجزئين من القرآن، ثم تعود إلى دروس العلم، فإن العلم أفضل من كل نافلة".

(١) رواه أحمد في مسنده برقم ٣٦٠٦

### المطلب الثالث

#### المضامين الأخلاقية والسلوكية

الخلق هو السجية، قال الجرجاني -رحمه الله-: "الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة؛ تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية"<sup>(١)</sup>. والدعوة إلى مكارم الأخلاق هي وصية الأنبياء، ودأب الصالحين والأصفياء، في وصاياهم للناس عامة، ولأبنائهم خاصة. فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"<sup>(٢)</sup>. وفي وصية لقمان لابنه قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٣﴾.

وبقدر استقامة العبد في خلقه وسلوكه، بقدر ما يكون رقيه وسؤدده في الدنيا والآخرة، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً"<sup>(٤)</sup>، وعن جابر -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً

(١) التعريفات ص ١٠١.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١٣٢، وأحمد ٢/٣٨١، والبخاري في الأدب المفرد ٢٧٣، وفي التاريخ الكبير ٧/١٨٨، والحاكم ٢/٦١٣، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه مالك ٢/٦٩٠، بلاغاً، وقال ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/٣٣٣-٣٣٤، وهذا حديث يتصل من طرق صحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

(٣) سورة لقمان آية: ١٨ - ١٩.

(٤) متفق عليه، البخاري، باب: حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، رقم الحديث ٥٥٧٥، واللفظ له، ومسلم، باب: كثرة حياته -صلى الله عليه وسلم-، رقم الحديث ٤٢٨٥.



يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً" (١).

وابن الجوزي - رحمه الله - قد نبّه ولده في وصيته إلى جملة من الأصول الأخلاق الفاضلة مرغباً فيها، ومحذراً من أضراده، مما رآه ألزم وأكثر مناسبة لولده، ومن نماذجها ما يأتي:

### ١- الحث على القناعة:

القناعة هي الرضا بالقسم، والاجتزاء باليسر من العيش (٢)، وهي كثر لا يفنى، ولا يصفو عيشٌ لغير قنوع، وهي خلق فاضل، وقد جاء الحث على القناعة وبيان فضائلها في نصوص كثيرة: عن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع» (٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» (٤).  
فالقناعة تحفظ ماء الوجه، وتصون عرض العبد، كما قال الشافعي - رحمه الله - (٥):

|                        |                       |
|------------------------|-----------------------|
| رأيت القناعة رأس الغنى | فصرت بأذيالها ممتسك   |
| فلا ذا يراني على بابه  | ولا ذا يراني به منهمك |

(١) رواه الترمذي في سننه باب ما جاء في معالي الأخلاق رقم ١٩٤١ وقال الترمذي "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه".

(٢) انظر: المفردات للراغب ص ٤١٣.

(٣) رواه الترمذي في سننه باب من رضا بالكفاف وصبر عليه رقم الحديث ٢٥٢٢ وقال الترمذي حسن صحيح

(٤) رواه مسلم في صحيحه باب في الكفاف والقناعة رقم الحديث ٢٤٧٣.

(٥) ديوان الشافعي ص ١٠٢.

فصرت غنيًا بلا درهم أمرّ على الناس شبه الملك  
وقد نبّه ابن الجوزي -رحمه الله- ولده في وصيته إلى هذه المعاني، فبيّن أنّ  
صيانة العرض، من هوان الذلّ، وطريق العزّ إنما يكون بالقناعة، مستشهداً بحال  
السلف رحمهم الله، كيف عزّوا وبزّوا حينما قنعوا بما قُسم لهم، قال -رحمه الله-:  
"واجتهد يا بني في صيانة عرضك من التعرض لطلب الدنيا والذل لأهلها، واقنع  
تَعَزٍّ، فقد قيل: من قنع بالخبز والبقول لم يستعبده أحد وجاز أعرابي بالبصرة فقال:  
من سيد هذه البلدة ؟ ف قيل له: الحسن البصري، قال: وبم سادهم ؟ قالوا: استغنى  
عن دنياهم وافتقروا إلى علمه".

## ٢- الحث على العزلة والتحذير من الخلطة السيئة:

العزلة عن الفتن والشُرور وأهلها، من حميد الخصال، وطيب الخلال، بشرط  
أن لا تفوّت هذه العزلة واجباً، ولا تصد عن حقّ، قال ابن الجوزي -رحمه الله-:  
"كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالاً بالعلم والتعبّد، إلّا أن عزلة  
القوم لم تقطعهم عن جمعة، ولا جماعة، ولا عيادة مريض، ولا شهود جنازة، ولا قيام  
بحق، وإنما هي عزلة عن الشرّ وأهله، ومخالطة الباطلين"<sup>(١)</sup>، وقال أيضاً: "وأما الانقطاع  
فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل  
حال"<sup>(٢)</sup>.

فالعزلة عن الشر وعند الفتن محمودة: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه-  
أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يوشك أن يكون خير مال المسلم  
غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن»<sup>(٣)</sup>.  
قال الخطابي -رحمه الله-: "والعزلة عند الفتنة سنة الأنبياء، وعصمة الأولياء،

(١) تلييس إبليس ص ٣٥٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨٩-٩٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه باب من الدين الفرار من الفتن رقم الحديث ١٨.

وسيرة الحكماء والأولياء، فلا أعلم لمن عابها عذراً، لا سيما في هذا الزمان القليل خيره، البكيء درّه، وبالله نستعيد من شره وريبه" (١).

أما العزلة عن الخير فهي مذمومة: فعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم» (٢).

قال ابن الجوزي -رحمه الله-: "كم فَوَّتَتْ العزلة علماً يصلح به أصل السدين، وكم أوقعت في بليّة هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشرّ فحسب" (٣). وقد أوجز ابن الجوزي وأجاد في عبارات يسيرة هذه المعاني والمقاصد في العزلة فقال في وصيته: "وعليك بالعزلة فهي أصل كل خير، واحذر من جليس السوء".

### ٣- الحث على المداراة والحلم:

المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة (٤)، والحلم هو: "ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب" (٥).

وحينما حرص ابن الجوزي على ما يديم الألفة بين ولده وبين الناس، أوصاه بأعظم مفاتيحها وهي المداراة والحلم، فقال -رحمه الله-: "وكن حسنَ المداراة للخلق، مع شدة الاعتزال عنهم، فإن العزلة راحة من خلطاء السوء، ومُبقية للوقار، فإن الواعظ خاصة ينبغي أن لا يرى مُتبدلاً، ولا ماشياً في سوقٍ ولا ضاحكاً،

(١) العزلة للخطابي ص ٨.

(٢) رواه الترمذي في سننه باب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله رقم الحديث ٢٤٣١، وابن ماجه باب الصبر على البلاء رقم الحديث ٤٠٢٢ واللفظ له وصححه الألباني في السلسلة رقم الحديث ٩٣٩.

(٣) صيد الخاطر ص ١٢٨.

(٤) فتح الباري ١٠/٥٢٨.

(٥) مفردات الراغب ص ١٢٩.

لِيَحْسُنَ الظَّنُّ بِهِ، فَيُنْتَفَعُ بِوَعظِهِ. فإذا اضطُررتَ إلى مخالطة الناس فخالطهم بِالْحِلْمِ عنهم، فإنك إن كشفتَ عن أخلاقهم لم تقدر على مداراتهم".

#### ٤- الوصية بأداء الحقوق إلى الناس:

من أعظم صور الأمانة ومنازلها أداء الحقوق إلى أهلها، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتعظيم الأمانة كلما قويت الصلة والقربة، فأداء حقوق الزوجة والولد والقربة هي أعظم منازل الأمانة، فعن أبي جحيفة السَّوَّائِيَّ وَهَب بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: "أخى النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- بين سلمان وأبي الدَّرْدَاءِ، فزار سلمان أبا الدَّرْدَاءِ، فرأى أُمَّ الدَّرْدَاءِ متبذلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدَّرْدَاءِ ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدَّرْدَاءِ، فصنع له طعاما فقال له: كل. قال: فَإِنِّي صائم، قال: ما أنا بأكل حتَّى تأكل. قال: فأكل، فلمَّا كان اللَّيْل ذهب أبو الدَّرْدَاءِ يقوم، قال: نم، فنام. ثمَّ ذهب يقوم، فقال: نم. فلمَّا كان من آخر اللَّيْل قال سلمان: قم الآن، فصلِّيا. فقال له سلمان: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولأهلك عليك حَقًّا، فأعط كلَّ ذي حقَّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم-، فذكر ذلك له، فقال له النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «صدق سلمان»<sup>(١)</sup>.

وقد أشار ابن الجوزي إلى هذا المعنى البديع في قوله -رحمه الله-: "وأدِّ إلى كل ذي حق حقه، من زوجة أو ولد أو قرابة".

(١) رواه البخاري في صحيحه باب من أقسم على أخيه أن يفطر في التطوع رقم الحديث ١٨٦٧.

## المطلب الرابع

### المضامين العلمية

أساس وصية ابن الجوزي - رحمه الله -؛ والتي أبان عن مرادها وكنسها في مستهل وصيته؛ هو حث ولده على طلب العلم، وخوض غماره، قال رحمه الله: "ثم رأيتُ منه نوعٌ توانٍ عن الجِدِّ في طلب العلم، فكتبتُ إليه هذه الرسالة أحثه بها على طلب العلم وأحركه على سلوك طريقي في كسب العلم". لأجل هذا نرى ابن الجوزي يطيل النفس في المجال العلمي، تحقيقاً للمقصد والمراد، وقد تضمنت وصيته جملة من درر الفوائد في المجال العلمي، من أبرزها ما يأتي:

#### ١- الحث على إعمال الفكر والعقل:

وهب الله تعالى بني آدم عقولاً للتفكر والتبصر، وقد أشاد الله في كتبه بذوي البصائر والعقول، وذم من عطل عقله عن التفكير والتبصر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال في معرض الذم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الرعد آية ٣

(٢) سورة الزمر آية ٤٢.

(٣) سورة البقرة آية ١٧٠

(٤) سورة المائدة ٥٨.

ولهذا بين ابن الجوزي نعمة العقل، والغاية منه، وهو العمل بمقتضاه، في جلب المنافع ودفع المضار، فقال -رحمه الله-: "اعلم يا بني وفقك الله أنه لم يميّز الآدمي بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك وأعمل فكرك، واحل بنفسك".

## ٢- بيانه فضل العلم:

فضل العلم يربوا كل فضل، فهو سبيل الرفعة، وطريق المجد لمن رام العلياء، ولهذا كان أهل العلم هم صفوة الخلق، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾<sup>(١)</sup>، فهو ميراث الأنبياء، وزاد الأتقياء، ولا طريق لصحة العمل إلا من طريق العلم، ولذلك قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد وفق ابن الجوزي -رحمه الله- في وصيته، لاستثارة همة ولده، ببيان فضل العلم الناجز والناسي، فقال -رحمه الله-: "واعلم أن العلم يرفع الأراذل، فقد كان خلق كثير من العلماء لا نسب لهم يُذكر، ولا صورة تُستحسن، وكان عطاء بن أبي رباح أسود اللون ومستوحش الخلق، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ومعه ولده، فجعلوا يسألونه عن المناسك، فحدثهم وهو معرض عنهم بوجهه، فقال سليمان الخليفة لولديه: "قوما ولا تنيا ولا تكاسلا في طلب العلم، فما أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود" وكان الحسن البصري مولى - أي مملوكاً - وابن سيرين ومكحول وخلق كثير، وإنما شرفوا بالعلم والتقوى".

## ٣- الحث على طلب العلم والنظر في الكتب:

خير جليس في الأنام كتاب، فهو ينبوع الحكم، ومصدر المعارف، وقد كان ابن الجوزي -رحمه الله- شغوفاً بالكتب بلغ في ذلك الغاية القصوى. قال ابن الجوزي -رحمه الله- عن نفسه في "صيد الخاطر": - أثناء حديثه عن

(١) سورة المجادلة آية ١١

(٢) سورة محمد آية ١٩

المطالعة والإكثار منها:- "وإني أخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأنني وقعتُ على كثر. ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النُّظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثَبَتِ كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشاب - وكانت أحمالاً - وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه. ولو قلست: إني طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلَب"<sup>(١)</sup>.

ولهذا نجده يبحثُ ولده على إدمان النظر في الكتب، والانقطاع بها عن الخلق، فيقول -رحمه الله:- "وليكن جلساؤك الكتب، والنظر في سِيرِ السلف".

ويقول -رحمه الله:- "وعليك بكتاب "منهاج المريدين" فإنه يعلمك السلوك، فاجعله جليسك ومعلمك، وتلمَّح كتاب "صيد الخاطر" فإنك تقعُ بواقعاتٍ تُصلحُ أمرَ دينك ودنياك، واحفظ كتاب "جنة النظر" فإنه يكفي في تلقيح فهمك للفقهِ، ومتى تشاغلت بكتاب "الحدائق" أطلعك على جمهور الحديث، وإذا التفتَ إلى كتاب "الكشف" أبان لك مستور ما في الصحيحين من الحديث، ولا تشاغلن بكتب التفاسير التي صنفتها الأعاجم، وما ترك "المغني" و "زاد المسير" حاجةً إلى شيء من التفاسير، وأما ما جمعتُه لك من كتب الوعظ فلا حاجة بعدها إلى زيادة أصلاً". ويقول في موضع آخر: "وقد علمتَ يا بني أنني قد صنفتُ مائة كتاب، فمنها "التفسير الكبير" عشرون مجلداً، و "التاريخ" عشرون مجلداً، و "تهذيب المسند" عشرون مجلداً، وباقي الكتب بين كبار وصغار يكون خمس مجلدات، ومجلدين وثلاثة، وأربعة، وأقل وأكثر؛ كفيتُك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهمم في التأليف".

(١) صيد الخاطر ص ١٤٩.

## ٤- التدرج في طلب العلم:

ينبغي لطالب العلم من التدرج في طلبه؛ بحيث يبدأ بالأصول قبل الفروع، وبالحكم قبل المتشابه، ولا ينتقل من علم إلى آخر حتى يحكمه. ولهذا نزل القرآن على قلب النبي منجماً مفرقاً، لأن ذلك أوعى لاستيعابه وحفظه، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عبد البر - رحمه الله -: "طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل من تعداها مجتهداً زل"<sup>(٣)</sup>.

وقد ألمح ابن الجوزي - رحمه الله - إلى هذا المعنى في وصيته بقوله: "ولا تشتغل بعلم حتى تحكم ما قبله".

ومن أصول التدرج في طلب العلم: البدء بحفظ القرآن أولاً، ثم الاشتغال بحديث رسول الله رواية ودراية، قال ابن الجوزي - رحمه الله - في وصيته: "فيتشغل بحفظ القرآن وتفسيره، وبحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبمعرفة سيره وسير أصحابه والعلماء بعدهم، ليتخير مرتبة الأعلى فالأعلى. ولا بد من معرفة ما يقيم به لسانه من النحو ومعرفة طرف من اللغة مستعمل، والفقه أم العلوم، والوعظ حلواؤها وأعمها نفعاً".

ونجد هذه الوصية تتكرر مع ابن الجوزي في كتبه، فيقول رحمه الله في كتابه صيد الخاطر: "وقد علم قصر العمر، وكثرة العلم، فيبدأ - أي الطالب - بالقرآن

(١) سورة الإسراء آية ١٠٦

(٢) سورة الفرقان آية ٣٢.

(٣) جامع بيان العلم وفضله الجامع ١٦٦/٢.

وحفظه، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفي عليك بذلك منه شيء. وإن صح له قراءة القراءات السبعة، وأشياء من النحو وكتب اللغة، وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل كالصحيح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظر في أصول ذلك... وتشاغل بأصول الفقه، وبالفرائض وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم"<sup>(١)</sup>.

### ٥- قوام العلم الحفظ والصدق والإخلاص:

إخلاص النية وصدق الطوية من أعظم أسباب نيل العلم، لأنها عنوان التقوى، التي هي مفتاح كل خير، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء الوعيد الشديد لمن شاب نية طلبه للعلم بشوائب الرياء والمباهاة وغيرها، كما في الحديث الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "من تعلّم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله جهنم"<sup>(٣)</sup>.

وللإخلاص أثر عجيب في بركة العلم، وفي أثره، ولذلك قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: "من أشخص بقلبه إلى الله انفتحت ينابيع الحكمة من قلبه، وجرّت على لسانه"<sup>(٤)</sup>. وقال الخطيب البغدادي رحمه الله: "الإخلاص لله يورث الفهم عن الله"<sup>(٥)</sup>.

أما الحفظ: اعلم الذي لا يستحضره صاحبه متى أراد؛ لا يعد علماً، ولهذا قال

(١) صيد الخاطر ص ١٦٩.

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٢.

(٣) رواه ابن ماجه باب من سأل عن علم فكتمه رقم الحديث ٢٥٦، وصححه الألباني في صحيح

الترغيب والترهيب رقم ١١٠.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٥٢/١٠.

(٥) اقتضاء العلم بالعمل ص ٣٢.

عبد الرزاق الصنعاني رحمه الله أنه قال: "كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعده علماً"<sup>(١)</sup>. وأنشد أبو الفتح هبة الله بن عبد الواحد البغدادي لبشار<sup>(٢)</sup>:

علمي معي أينما يمتت يتبعني      بطني وعاء له لا بطن صندوق  
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي      أو كنت في السوق كان العلم في السوق  
وقد أكد ابن الجوزي رحمه الله- على هذه المقومات والأصول في وصيته حيث يقول:

"فعليك بالحفظ، فإن الحفظ رأس المال، والتصرف ربح، وصدق في الحالين في الالتجاء إلى الله سبحانه، فراع حدوده، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تُصْرُوا اللَّهُ يَصْرُكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازِهُبُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

#### ٦- وجوب اقتران العلم بالعمل:

العلم لا يراد لنفسه وإنما يراد للعمل بمقتضاه؛ فالعمل هو ثمرة العلم وزكاته، لأجل هذا جاء ذم من ترك العمل بما علم، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا بَلَسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(٦)</sup>.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه-، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن

(١) رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/٢٥٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة محمد آية ٧.

(٤) سورة البقرة آية ١٥٢.

(٥) سورة البقرة آية ٤٠.

(٦) سورة الجمعة آية ٥.

جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما وضعه، وعن علمه ماذا عمل فيه" (١).

والعلم شرط في صحة العمل، لذلك بوب الأمام البخاري في صحيحة باب "العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: "فاعلم أنه لا إله إلا الله وقد بين ابن الجوزي -رحمه الله- هذا الأصل في وصيته في قوله: "ثم اعلم أن طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين، ثم الفضائل تتفاوت، فمن الناس من يرى الفضائل الزهد في الدنيا، ومنهم من يراها التشاغل بالتعب، وعلى الحقيقة فليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل، فإذا حُصِّلا رفعا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالى، وحركاه إلى محبته وخشيته والشوق إليه، فتلك الغاية القصوى، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وليس كل مريد مراداً، ولا كل طالب واجداً، ولكن على العبد الاجتهاد".

وقال -رحمه الله-: "وإياك أن تتشاغل بالتعب من غير علم، فإن خلقاً من المتزهدين والمتصوفة ضلوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم".

(١) رواه الترمذي باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص رقم الحديث ٢٣٤١.

## المبحث الثاني

### أسس منهج ابن الجوزي وأساليبه في وصيته لولده

#### المطلب الأول

#### الأسس البيانية

##### أولاً: روعة البيان:

إن روعة البيان، تُعدّ من أعظم مقومات المواعظ والوصايا لأنّ من استجمع الفصاحة والبيان استحوز على القلوب، واستولى على العقول، وأثّر في النفوس أيما تأثير، ولذا جاء في حديث عمار -رضي الله عنه- قول النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (.... وإنّ من البيان لسحراً)<sup>(١)</sup>.

"وفي الحديث مدح للبيان، لأنّ الله تعالى امتن على عباده بتعليمهم البيان، وشبهه -صلى الله عليه وسلم- بالسحر، لميل القلوب إليه"<sup>(٢)</sup>. وقد أمر الله عز وجل رسوله الكريم والناصحين من بعده، بعظة الناس بالقول البليغ الفصيح، قال تعالى: ﴿وَعَظُّهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾<sup>(٣)</sup>. أي: (مؤثراً واصلاً إلى كُنْه المراد، مطابقاً لما سيق له من المقصود)<sup>(٤)</sup>.

قال ابن سيرين -رحمه الله-: "لا شيء أزين على الرجل من الفصاحة والبيان"<sup>(٥)</sup>.

والبيان والفصاحة من أبرز مقومات المواعظ والنصائح والوصايا؛ لأنّ لها وقع في القلوب، واثّر في النفوس، وفي هذا يقول ابن الجوزي -رحمه الله-: "إن الكلام

(١) رواه البخاري باب ان من البيان لسحرا رقم الحديث ٥٣٢٥.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٥٧/٦.

(٣) سورة النساء، الآية ٦٣.

(٤) تفسير أبي السعود ١٩٦/٢.

(٥) ذكره ابن عبد البر في أدب المجالسة، ص ٤٥.

المستحسن له وقع في النفوس، ولا يلتفت إلى مترهد جاهل يقول: هذا تصنع، فإن التصنع المباح لاستجلاب القلوب لا يذم وقد كان لرسول الله خطيب فصيح يقال له ثابت بن قيس وشاعر هو حسان، فإذا جاءه خطيب أو شاعر من قبل المشركين قاوماه. ولو أن واعظاً قال الحمد لله واقتصر على هذا في الخطبة ثم قال اتقوا الله واقتصر على إعادة هذه الكلمة لم يقع قوله موقع من يأتي بالكلام المستحسن واللفظ الرائع. ومن تأمل القرآن وما فيه من الكناية والتجوز والاستعارة عرف موقع الفصاحة من القلوب<sup>(١)</sup>. والمتأمل في وصية ابن الجوزي رحمه الله يدرك ما تضمنته من روعة بيان، وبديع، وفصاحة، وهذه وقفات مع روعة البيان في وصية ابن الجوزي رحمه الله:-

### ١- السجع المحمود:

السَّجْعُ هو تماثل الحروف في مقاطع الفصول<sup>(٢)</sup>. وهو محمود إن كان بعيداً عن التكلف والتعسف والتصنع؛ قال الغزالي رحمه الله: "ولا يدخل-السجع المذموم- في تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير، من غير إفراط وإغراب، فإنَّ المقصود منها تحريك القلوب، وتشويقها، وقبضها، وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه، فهو لائق به"<sup>(٣)</sup>.

والناظر في هذه الوصية يجد بعضاً من السجع غير المتكلف؛ مما زاد الوصية رونقاً وبهاء، ومن ذلك قوله: الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب، وأخرج ذريته من الترائب والأصلاب، وعصّد العشائرَ بالقراية والأنساب، وأنعم علينا بالعلم وعرفان الصواب. .

### ٢- الاستعارة والكناية:

هي الكلمة المستعملة لغير ما وضعت له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى

(١) القصاص والمذكرين ص ٣٦١.

(٢) سر البلاغة لابن سنان الخفاجي ص ٢٤٢.

(٣) إحياء علوم الدين ١٢٢/٣.

الأصلي<sup>(١)</sup> والاستعارة مما يزيد المعنى وضوحاً، والفكرة بهاءً، والوصية قوة وأثراً. وقد استخدم ابن الجوزي هذا الأسلوب في مواطن من وصيته، ومن ذلك قوله: "والكسلُ عن الفضائل بئس الرفيق": ففي هذا تشبيه للكسل بالرفيق السيئ بجامع المضرة وقوة التأثير في الرفيق. وقوله: "والفقهُ أُمُ العلوم، والوعظُ حلواؤها وأعمها نفعاً": ففي هذا تشبيه لعلو كعب الفقه بعلو الأم وفضلها، وتشبيه لأثر الوعظ بأثر الحلواء وعموماً نفعها.

### ٣- الجمع بين الأسلوب الخبري والإنشائي:

الوصية والنصيحة إن كانت ممن له فضل ورسوخ قدم في العلم؛ أمكن الجمع فيها بين الأسلوبين الخبري والإنشائي. ولهذا نرى ابن الجوزي رحمه الله، يستخدم أسلوب التعميم في الوصية والنصيحة؛ لأن النصيح بالتعريض دون التصريح، وبالتعميم دون التخصيص، يُعدُّ من أعظم آداب الموعظة والنصيحة، ومن أكبر عوامل قبولها، لأن النفس البشرية مجبولة على الأنفة والكبر والاعتداد بالذات، فهي لا تحب أن يواجهها أحد كائناً من كان بعيوبها صريحة مكشوفة، لأنها تعتبر ذلك إهانة لها وتحقيراً، فتلجأ إلى العناد والمحادّة والمشاقة<sup>(٢)</sup>.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم- يعمّم في موعظته ونصيحته. فعن عائشة - رضي الله عنها- قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- إذا بلغه عن الرجل شيء، لم يقل: لم قلت كذا وكذا، ولكنه يعمّم فيقول: ما بال أقوام"<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك قوله: وأول ما ينبغي النظر فيه...، وينبغي معرفة ما يقيم به لسانه... ومن تفكر في الدنيا قبل أن يوجد.. وغير ذلك. ونراه في أحيان أخرى يستخدم بعضاً من صيغ الإيجاب والأمر والإلزام، والنهي؛ لأنها وصية من والسد

(١) البلاغة الواضحة ص ٧١.

(٢) انظر منهج السلف في الوعظ ص ٣١٥

(٣) رواه أبو بكر القرشي في مكارم الأخلاق ص ٣٦.



لولده، ومن منعم لمنعم عليه، ومن هذه الصيغ تمثيلاً: وانظر يا بني..، واعلم يا بني..، وانتبه يا بني..، فالزم نفسك يا بني..، وقل عند انتباهك..، ثم قم إلى...، ثم تشاغل بما يمكن..، وعليك بالعزلة..، واجتهد يا بني..، وينبغي أن تسمو همتك..، وإياك أن تقف..، وعليك بكذا...، وراع عواقب الأمور... وغيرها.

### ثانياً: حسن الابتداء وروعة الاستهلال:

إن براعة الاستهلال تجعل بين المتكلم والمستمع جسراً من المودة والألفة، والإنصات من أول وهلة.

وقد اتفق علماء البديع على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلية المعاني واضحة في استهلالها، بحيث توجز المعاني التي يراد إيضاحها فيما يستقبل من الكلام، فتشد السامع شداً، وتوقظ قلبه وجوارحه<sup>(١)</sup>.

قال أبو هلال العسكري: "وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام"<sup>(٢)</sup>. ويقول ابن المقفع: "وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك"<sup>(٣)</sup>.

والفصاحة والبيان في الاستهلال لها مقومات إذا توافرت في الوصية أدت إلى الغرض والمأمول من التأثير والاستجابة، ومن هذه المقومات التي توافرت في وصية ابن الجوزي رحمه الله ما يأتي:

ابتدأه بالحمد والثناء على الله: اقتداء بالكتاب والسنة، وجاء الترغيب في ذلك في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أقطع»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب الحموي ص ٣٠.

(٢) الصنائع لأبي هلال العسكري ص ٤٩٦.

(٣) انظر: البيان والتبيين للجاحظ ص ١١٦.

(٤) رواه أبو داود ١٧٢/٥ رقم ٤٨٤٠ وابن ماجه ٦١٠/١ وأحمد في المسند ٣٥٩ / ٢

قال الشافعي رحمه الله: "أحب أن يقدم المرء بين يدي خطبته وكل أمر طلبه حمد الله تعالى والثناء عليه سبحانه وتعالى والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم".<sup>(١)</sup>

والحمد هو اعتراف بالمنعم وشكر لنعمائه، والعبد لا يؤثر بمجرد مقالته ونصحه، مهما حبره ودبجه بحلل المعاني، وإنما يؤثر بتوفيق الله تعالى.

استفتاحه بألفاظ مخصوصة تلميحاً للمقصود من الوصية وهي نصح الولد، حيث يقول: (الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب، وأخرج ذريته من الترائب والأصلاب، وعضد العشائر بالقراة والأنساب، وأنعم علينا بالعلم وعرفان الصواب، أحسن التربية في الصغر وحفظ في الشباب، ورزقنا ذرية نرجو بهم وفور الثواب).

انتقاؤه للعبارات الدالة على نعمة الأبوة والبنوة، وحقوقها: حيث يقول في مطلعها: (اعلم يا بني وفقك الله..)، ومن المعلوم أن التلطف في النداء مستحلب لميل القلوب لسماع النصح والوصايا، كما جاء في وصية لقمان وموعظته لابنه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، فهو نداء إشفاق وعطف<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: حسن الختام:

العبرة بالخواتيم، إذ أن ما يعلق في الأذهان من النصح والكلام، والمواعظ والوصايا، هو آخر ما يطرق الأسماع؛ "فإذا كان آخر ما ارتسم في ذهن المستمع

(١) مغني المحتاج ٢٤/١

(٢) سورة لقمان آية ١٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٣٣٦.

والقارئ بليغا حسنا، تلقاه بعناية القبول، واستلذ به، فالعبرة بالخواتيم"<sup>(١)</sup>.

قال أبو هلال العسكري: "الابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا جميعاً موفقين"<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال ما سطره ابن الجوزي في خاتمة وصيته:

— تذكيره لشرف نسبه: وأنه من بيت علم وفضل من ذرية أبي بكر الصديق، ليشحذ همته للتشبه بالأصل.

— بيانه أنه قد عُقد فيه الأمل والرجاء: بإحياء ما اندرس من تشاغل قرابته عن العلم، وانصرافهم عنه، وفي هذا أبلغ التحفيز، وأعظم الترغيب.

— دعاؤه الله عز وجل أن ينفع ولده بهذه الوصية، وأن يوفقه لحسن العلم والعمل، مع بيانه أنه قد استنفذ الجهد في تحبيرها، مع الاعتماد على الله في ذلك أولاً وآخرًا.

#### رابعاً: السهولة والبعد عن التكلف:

من شأن هذا الأمر أن يستجلب سمع الموصى إليه، ويؤثر فيه غاية التأثير، لأنّ القلوب تكون مقبلة على سماع الوصية، مشتهية لها، محيطة بمراميتها ومقاصدها. قال أبو هلال العسكري رحمه الله: "فمدار البلاغة على تحيّر اللفظ، وتخيّره أصعب من جمعه وتأليفه"<sup>(٣)</sup>.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "وكان السلف يقتنعون من المواعظ باليسير من غير تحسين لفظ، أو زخرفة نطق"<sup>(٤)</sup>. ومن خلال ما دوّنه ابن الجوزي في وصيته نجده ينأى بنفسه عن التكلف والتصنع في العبارة، رغم أنه استجمع الفصاحة

(١) انظر البلاغة التطبيقية دراسة تحليلية لعلم البديع، لمحمد رمضان ص ٢٢٣.

(٢) الصناعتين ص ٤٨٩.

(٣) كتاب الصناعتين ص ٥٨.

(٤) انظر: أجد العلوم ٥٣٥/٢.

والبيان، وكان بليغاً مفوّهاً، فنجد عباراته سهلة سلسلة، دون تقعر أو تشدق، أو استعمال لحوشي الألفاظ وغريب الكلمات.

#### خامساً: التدرج في الوصية، بالبدء بالأهم فالأهم:

لقد سلك العلماء والناصحين والمرين إلى أسلوب التدرج من الأدنى إلى الأعلى ليسهل على السامع أو المتلقي فهم المراد، واستيعاب المحتوى، ولا سيما إذا كان المحتوى مركباً أو معقداً أو يلقي على من لا يفهمه جملة واحدة، وهذا من الأساليب الناجحة في إفهام المستمع، يقول ابن خلدون رحمه الله: (اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدرج، شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا... وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم)<sup>(١)</sup>.

وهذا ما نلاحظه في وصية ابن الجوزي رحمه الله- لابنه حيث تدرج معه في الموعظة والوصية حتى يكون على الطريق المستقيم الذي يرضاه الله، فتدرج معه في هذه الوصية فجعلها مقسمة على أمور منها: استحضر العقل في الغاية من الخلق، ثم حثه على طلب الفضائل، وطلب العلم والحث على الاجتهاد في الطاعة، وإعطاء المثل من نفسه. ثم تدرج معه إلى الحث في تعجيل التوبة، واستدراك ما فات، واغتنام العمر. ثم وصية له بالعزلة والزهد. والتقوى فإنها خير زاد. ثم ذكر له بعض الكتب المفيدة ليغتني الوقت في النظر فيها وختم الوصية بحفظ حقوق الناس. ومن مقتضيات هذا التدرج الرفق بالمتعلم، وعدم أخذه بالشدة حتى يحصل له الفهم والتحصيل.

قال ابن خلدون رحمه الله: (الشدة على المتعلمين مضرّة بهم وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضمّر بالمتعلم، سيما في أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة)<sup>(٢)</sup>. ومن هذا نعلم حرص ابن الجوزي على أبنه الوحيد حيث تدرج معه، وقسم له النصيحة، وجزئها له أجزاء لكي يحسن فهمها وتطبيقها.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٣١

(٢) المرجع السابق ص ٥٤٠

## المطلب الثاني

### الأسس العلمية لمنهج ابن الجوزي في وصيته لولده

تمتاز وصية الإمام ابن الجوزي رحمه الله لولده، بالأثرية والشمولية في أسسها وطرائق استدلالها، من أبرزها ما يأتي:

#### أولاً: القرآن الكريم:

يتبوأ القرآن الكريم المكانة الأولى والمقام الأسمى عند السلف رحمهم الله، لأنه كلام الله العظيم<sup>(١)</sup>، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ورسالته الخالدة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل بما فيه هُدي إلى صراط مستقيم، أنزله الله عز وجل على نبيه تبياناً لكل شيء وهدي ورحمة وبشرى للمسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويقول -صلى الله عليه وسلم-: "فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه"<sup>(٤)</sup>.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- في وصف منهج السلف: "هم أهل الكتاب والسنة: لأنهم يؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي

(١) فالسلف رحمهم الله متفقون على أن القرآن كلام الله على الحقيقة ليس بمخلوق وأن الله تكلم به بحرف وصوت مسموع وأنه محفوظ من التحريف والتبديل ولا يجوز إنكار حرف منه ومن فعل ذلك فهو كافر انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٢٧٢/١.

(٢) سورة الإسراء الآية ٩.

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٢.

(٤) رواه الترمذي في سننه باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي رقم ٢٨٥٠ وقال: "هذا حديث حسن غريب".

محمد صلى الله عليه وسلم- على هدي كل أحد، ويتبعون آثاره ز باطناً وظاهراً<sup>(١)</sup>. وعلى منهج السلف الصالح رحمهم الله سار الإمام ابن الجوزي في وصيته هذه، لذا نجد الإمام ابن الجوزي رحمه الله يؤثر كلام الله في وصيته على غيره، فجاءت الوصية مليئة بالنصوص القرآنية.

ولابن الجوزي منهج فريد في الاستشهاد بأي الكتاب، تلتخص في الآتي:

#### أ- الاستشهاد الصريح:

وذلك عن طريق الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم:

- إما أن يصدر المعنى الذي يريد أن يوضحه بالاستشهاد بآية جامعة تدلّ على المراد والمقصود، ليجعل منها أصلاً، يستحضر السامع لوصيته.

- أو أن يذكر كلاماً أو مقطعاً من وصيته، ثم يردفه بذكر آيات جامعة تدلّ على المراد والمقصود، وله في ذلك مسلكان:

**الأول:** أن يذكر كلام له ثم يعقبه بذكر الآية الجامعة للمعنى، دون أن يصرح بذلك، ومثاله: عند ذكره لنعمة الولد، وأن الحافظ لهم هو الله، ثم ختم كلامه هذا بقوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾<sup>(٢)</sup> رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

الثاني: أن يذكر كلاماً له، ثم يصرح بأن هذا المعنى تجمعه الآية الفلانية، ومن ذلك:

لما ذكر أن من أسباب تحصيل العلم التقوى والتعلق بالله، قال رحمه الله عقب ذلك: وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) مجموع الفتاوى ٤٥٧/٣.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٠/٤١.

وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>.

- أو أن يذكر المراد من وصيته، بذكر آيات من كتاب الله، دون تقديم أو تعقيب، ومن ذلك، ما ذكره في مستهل وصيته، في أن الله هو الهادي إلى الصراط المستقيم، ولكن واجب النصح والتذكير هو الذي حداه لكتابة هذه الوصية، حيث أوجز هذا المعنى بذكر آيات تدل عليه، حيث قال: "لكن قد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّيْرِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾<sup>(٣)</sup>.

- أو أن يذكر قصة من القصص على سبيل الاستدلال والاقتداء، ثم يردفها بالآيات الدالة على ذلك، ومثال هذا: واعلم يا بني أن يونس عليه السلام لما كانت ذخيرته خيراً نجا بها من الشدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

#### ب- الاستشهاد الضمني:

وذلك بأخذ مضمون الآية القرآنية، وصياغتها بأسلوبه، وهو ما سار عليه في أغلب وصيته؛ إذ القرآن الكريم هو مصدر العلوم كلها كما صرح بذلك في كتبه حيث يقول: "...ومتى كان الواعظ عالماً بتفسير القرآن والحديث وسير السلف والفقهاء، عرف الجادة"<sup>(٥)</sup>.

وأمثلة ذلك كثيرة، منها: قوله: "الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب، وأخرج ذريته من الترائب والأصلاب"، فهذا مستل من قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ<sup>(٥)</sup> خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ<sup>(٦)</sup> يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢.

(٢) سورة العصر آية ٣.

(٣) سورة الأعلى آية ٩.

(٤) سورة الصافات آية ١٤٣.

(٥) القصص والمذكرين ص ٣٧٠.

(٦) سورة الطارق آية ٥/٧.

وقوله: وأنعم علينا بالعلم وعرفان الصواب؛ مستل من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: السنة النبوية:

السنة النبوية هي المعين والرافد بعد -القرآن الكريم- للوصية عند الإمام ابن الجوزي، وهذا واضح جلياً لمن وقف على وصيته لولده. وهذا منهج سار عليه ابن الجوزي -رحمه الله- في خطبه ومواظبه ووصاياه؛ قال رحمه الله: "ينبغي للواعظ أن يكون حافظاً لحديث رسول الله، عارفاً بصحيحه وسقيمه ومسنده ومقطوعه ومعضله"<sup>(٢)</sup>.

وقال في الحث على الاعتماد على السنة في مقام الخطابة: "وليكن أكثر اعتماده - أي الخطيب والواعظ - على الأحاديث والمنقولات من أخبار الصالحين"<sup>(٣)</sup>.

وطرائق استشهاد ابن الجوزي رحمه الله بالسنة النبوية في ووصيته على ضربين:

استشهاد بأقوال المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، واستشهاد بأفعاله وأحواله وسيرته.

### أ- الاستشهاد بأقوال النبي -صلى الله عليه وسلم-:

كانت أقوال النبي -صلى الله عليه وسلم- ومواظبه النبراس الذي يستضيء به، والمعين الذي ينهل منه ابن الجوزي في خطبه ووصاياه، إذ أن أقواله وحي يوحى وتشريع يتبع، مع ما أوتيته -صلى الله عليه وسلم- من بليغ القول وجوامع

(١) سورة الرحمن آية ٤/٣.

(٢) القصاص والمذكرين، ص ١٨٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٧٢.

الكلم، وسلك -رحمه الله- في استشهاده - بأقوال المصطفى في وصيته-  
مسلكين اثنين:

١- الاستشهاد الصريح: والمقصود بذلك إيراد قوله -صلى الله عليه وسلم-  
أو موعظته في ثنايا الوصية.  
ومن نماذج ذلك:

- حينما بيّن فضل التقوى وأنه خير زاد للعبد؛ استشهد عقب ذلك بحديث  
ابن عباس المشهور: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك"<sup>(١)</sup>.  
- وحثّ -رحمه الله- على التعجيل بالتوبة والندم واستدراك ما فات واغتنام ما  
بقي من العمر، ثم استدل على ذلك بحديث المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، قال -  
رحمه الله-: وفي الحديث: "من قال سبحان الله وبحمده غُرِسَتْ له نخلة في الجنة"<sup>(٢)</sup>  
فانظر إلى مضيّع الساعات كم يفوته من النخل".

٢- الاستشهاد الضمني: فقد أشرب قلب ابن الجوزي سنة -صلى الله  
عليه وسلم- ففاضت ينابيع الحكمة من فيه، فلا تكاد تقف على موعظة له إلا  
وتجد لها شاهداً من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.  
قال -رحمه الله-: "فإني - بحمد الله - لما كان أكثر اشتغالي بالحديث  
وعلموه لم يكذب لي حديث إلا ويمكنني أن أقول صحيح أو حسن أو محال ولي  
في كتي الوعظية - بحمد الله - أعمال عجز عنها من تقدم"<sup>(٣)</sup>. ومن شواهد ذلك:

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب الذبائح أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله رقم  
الحديث ٢٥٠٠ وقال: حديث حسن صحيح وأحمد في مسنده رقم الحديث ٢٧٦٣ والحاكم في  
المستدرک رقم الحديث ٦٣٠٤.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه باب الاذکار رقم الحديث ٨٢٦، وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله  
ثقات رجال الشيخين إلا أبا الزبير فمن رجال مسلم

(٣) القصاص والمذكرين ص ٣٧٣.

- قوله: "وما سعد من سعد إلا بمخالفة هواه، ولا شقي من شقي إلا بإيثار دنياه"، مستل من قول النبي صلى الله عليه وسلم- في الحديث: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"<sup>(١)</sup>.

وقوله: وانظر يا بني إلى نفسك عند الحدود، فتلّمح كيف حفظك لها ؟ فإنه من راعي روعي، ومن أهمل ترك، مستل من حديث ابن عباس المشهور: احفظ الله يحفظك.

### ٣- إirاده للأذكار الشرعية والسنن النبوية:

جاءت وصية ابن الجوزي رحمه الله، مليئة بالأذكار الشرعية، والسنن النبوية، حيث رسم لولده عمل اليوم والليلة، من أذكار الصباح والمساء، ومن النوافل الرواتب، وغيرها، كل ذلك مقتصرأ فيه على أحاديث النبي وسنته القولية والفعلية.

### ٤- مؤاخذات على أساليب ابن الجوزي في بعض استدلاله بالحديث

النبوي:

تنوعت أساليب ابن الجوزي -رحمه الله- في إirاده للأحاديث النبوية في وصيته، فنجد:

- يذكر الحديث أحيانا بلفظه الوارد في كتب الصحاح والسنن، مثل حديث ابن عباس -رضي الله عنه- المشهور، وكذا الشأن في الأذكار التي أوردها.

- وأحيانا أخرى يذكر الحديث بالمعنى: كما في حديث الثلاثة الذين آوهم المبيت في غار فانسد عليهم؛ فدعا كل واحد منهم بصالح عمله، وحديث فإن حفظ المال من الدين، ولأن تَخَلَّفَ لورثتك خير من أن تحتاج إلى الناس<sup>(٢)</sup>

(١) خرجه البيهقي في "المدخل" ١٨٨/١ رقم (٢٠٩) والخطيب في "تأريخه" ٢١/٦، والبعوي رقم (١٠٤) قال الشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد نزير دمشق حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح .

(٢) إشارة إلى حديث سعد بن أبي وقاص "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" متفق عليه

- وأحيانا يذكر الحديث ولا يوجد له أصل يروى به، مثل حديث: ما من شاب اتقى الله تعالى في شبابه إلا رفعه الله تعالى في كِبَرِهِ" فلا يوجد له أصل.  
- ونجده يذكر الصحيح من الأحاديث، مثل حديث ابن عباس، وحديث الغار، وغيرها.

وأحيانا أخرى يورد الضعيف منها: مثل حديث: "اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي.. " وهو حديث ضعيف<sup>(١)</sup>.  
ونرى ابن الجوزي -رحمه الله- يتساهل في رواية الاحاديث الضعيفة في فضائل الاعمال، علما أن في الصحيح غنية، وفيه أيضا سدا لفتح باب الاستدلال بالمكذوب وغيره.

### ثالثاً: سير السلف الصالح رحمهم الله:

كانت مواعظ المتقدمين من السلف وسيرهم مادة خصبة ومعيناً قيّماً، للوصية ابن الجوزي -رحمه الله-، لذا نجده يبحث على النقل والاستفادة والاستشهاد بأخبار السلف ومقالاتهم. قال -رحمه الله-: "فينبغي للواعظ أن يكون عالماً بالتواريخ، وسير السلف، حافظاً لأخبار الزهاد"<sup>(٢)</sup>. وقال أيضاً: "وليكن أكثر اعتماده على الأحاديث والمنقولات من أخبار الصالحين"<sup>(٣)</sup>.

وقد أكثر ابن الجوزي وهو -الجامع لأخبار الصالحين من السلف ومقالاتهم، كما في كتابه صفة الصفوة، من الاستشهاد بمقالات ومواعظ وسير السلف الصالح رحمهم الله في مواعظه ووصاياه.

قال -رحمه الله- عند ذكر جمعه لآلات الوعظ -: "وصنفت كتباً في أخبار الأخيار فمنها كتاب فضائل عمر بن الخطاب وكتاب فضائل عمر بن عبد العزيز و

(١) ضعه الألباني في ضعيف ابن ماجه ٦٠/١. و في الادب المفرد ص ٤١٦.

(٢) القصاص والمذكرين ص ١٨٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٧٢.

الحسن والفضيل وأحمد بن حنبل ومعروف وبشر وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من الصالحين وكتاب عيون الحكايات فيه خمس مائة حكاية مسندة<sup>(١)</sup>. ومن شواهد استدلال بأقوال وأحوال السلف رحمهم الله في وصيته ما يأتي:

#### ١- الاستشهاد بمقالات السلف رحمهم الله وأحوالهم:

- ومثاله: في حديثه عن تعجيل التوبة والندم واستدراك ما فات واغتنام ما بقي من العمر؛ استشهد ببعض آثار السلف، فقال: "قال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله-: دخلنا على عابدٍ مريض، وهو ينظر إلى رجله ويكي، فقلنا: ما لك تبكي؟ فقال: ما اغبرّت في سبيل الله تعالى؛ وبكى آخر فقيل له: ما يبكيك؟ قال: على يوم مضى ما صمته، وعلى ليلة ذهبت ما قمتها".

- وأحياناً يستدل بأفعال السلف رحمهم الله، ليحصل بذلك الاتساء والاقتداء، كما في قوله: "وقد كان السلف يغتنمون اللحظات، فكان كهمسُ [بن الحسن التميمي] يختم القرآن في كل يومٍ وليلةٍ ثلاث مرات، وكان أربعون رجلاً من السلف يصلون الفجر بوضوء العشاء، وكانت رابعةٌ لا تنام الليل، فإذا طلع الفجر هجعتُ هجعةً خفيفةً وقامت فزعةً وقالت لنفسها: النوم في القبور طويل".

- ونجده في مواطن أخرى يستدل بسمت السلف عموماً، دون نسبة لأحد منهم، كما في قوله: "فالزم نفسك يا بني الانتباه عند طلوع الفجر، ولا تتحدث بحديث الدنيا، فقد كان السلف الصالح رحمهم الله لا يتكلمون في ذلك الوقت بشيءٍ من أمور الدنيا".

(١) القصص والمذكرين ص ٣٧٢.



## المطلب الثالث

### الأساليب الدعوية لابن الجوزي في وصيته

تنوعت الأساليب الدعوية التي استخدمها ابن الجوزي -رحمه الله- في وصيته؛ وهذا بغرض التأثير والإقناع، إذ أن لكل أسلوب ميزته وأثره، ومن أبرز هذه الأساليب، ما يأتي:

#### أولاً: الموعظة، والترغيب والترهيب:

الموعظة الحسنة هي: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب<sup>(١)</sup>.

والترغيب هو: "هو الخطاب المفيد في حمل الناس على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة"<sup>(٢)</sup>. والترهيب هو: "هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، وعدم الثبات عليه، وعدم قبوله"<sup>(٣)</sup>.

وقد جاء الحث على استخدام هذا الأسلوب في مقام الدعوة والنصح والإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾<sup>(٤)</sup>. وقد أطنب الإمام ابن الجوزي في وصيته في استعمال هذا الأسلوب الدعوي؛ لأنه أليق بالوصية، وأشدّ تأثيراً في متلقيها، ولأن ابن الجوزي رحمه الله كان حامل لواء الوعظ بلا منازع. ومن نماذج ذلك ما يأتي:

- قوله -رحمه الله- في موعظته ولده في ضرورة محاسبة النفس واستغلال الوقت في صالح العمل حيث قال: "وأن أنفاسَ الحي خطوات إلى أجله، ومقدارَ اللبث في الدنيا قليل، والحبس في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل،

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١٥٧/٣.

(٢) هداية المرشدين ص ١٩٢.

(٣) أصول الدعوة ص ٤٣٧.

(٤) سورة النحل آية ١٢٥.

فأين لذة أُمس؟ قد رحلت وأبقت ندمًا، وأين شهوة النفس؟ نكست رأسًا وأزلت قدمًا".

- ويقول أيضاً: "واعلم يا بني أن الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاسًا، وكل نفس خزانة، فاحذر أن تذهب نفسًا في غير شيء، فتري يوم القيامة خزانة فارغة فتندم". ويقول -رحمه الله- في الترهيب من سبيل المترفين والترغيب في سبيل الصالحين:- "فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد، أين لذة هؤلاء وأين تعب أولئك؟ بقي الثواب الجزيل والذكر الجميل للصالحين، والمقالة القبيحة والعقاب الويل للعاصين، وكأنه ما شبع من شبع، ولا جاع من جاع".

- ويقول -رحمه الله- في الترغيب في التوبة: "فانتبه يا بني لنفسك واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين، ما دام في الوقت سعة، واسق غصنك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعاتك التي ضاعت، فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل، وقد كان السلف رحمهم الله يحبون جمع كل فضيلة، ويكون على فوات واحدة منها".

- ويقول عند بيانه لحقيقة الدنيا والترهيب من الاغترار بها: "ومن تفكر في الدنيا قبل أن يوجد، رأى مدة طويلة، فإذا تفكر فيها بعد أن يخرج رأى مدة قصيرة، وعلم أن اللبث في القبور طويل، فإذا تفكر في يوم القيامة، علم أنه خمسون ألف سنة، فإذا تفكر في اللبث في الجنة أو النار علم أنه لا نهاية له، فإذا عاد إلى النظر في مقدار بقائه في الدنيا — فرضنا ستين سنة مثلاً — فإنه يمضي منها ثلاثون في النوم، ونحو من خمس عشر في الصبا، فإذا حسبت الباقي، كان أكثره في الشهوات والمطاعم والمكاسب، فإذا خلص ما للآخرة وجد فيه من الرياء والغفلة كثيرًا، فماذا تشتري الحياة الأبدية، وإنما الثمن هذه الساعات؟! ".

## ثانياً: الأمثال:

المثل هو: جملة من القول مقتضية من أصلها، أو مرسلها بذاتها، تتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها"<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم رحمه الله:- المثل: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر"<sup>(٢)</sup>.

ولضرب الأمثال أثناء العظة والوصية أكبر الآثار، فهي أوقع في النفوس، وأبلغ في التأثير، وأقوى في الزجر"<sup>(٣)</sup>، وتظهر أهمية ضرب الأمثال في الوصية، من خلال دقة المثل ووضوحه وقدرته على الإقناع، ومن خلال أغراضه وأثره. ومن جملة ما استشهد به ابن الجوزي رحمه الله من الأمثال لتقريب المعاني: قوله رحمه الله: "وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم". وهذا شطر بيت سار مسار الأمثال يضرب للدلالة على علو الهمة وسمو النفس في طلب المعالي، وقد أتى به ابن الجوزي رحمه الله عند حديثه عن علو همة العبد، وضرورة طلب المعالي وبذل الوسع في ذلك. وقال - رحمه الله:- "من قنع بالخبز والبقل لم يستعبده أحد"، وهذا مثل يدل على فضل القناعة، وسمو القانعين.

## ثالثاً: الشعر:

من تدبر الأشعار وقلب النظر فيها، وجد أن منها ما تكون فيه حكمٌ صائبةٌ، وعبرٌ بانيةٌ، تزكي النفوس وتشحذ الهمم، كما أن فيها ذكرٌ للخير وترغيبٌ فيه، وتعريضٌ بالشر وتحذيرٌ منه. وإن توشية الوصية بالأشعار الجميلة الرائقة مما تهتز له النفوس، ويحسن وقعه على الأسماع، خصوصاً إذا كان الاستشهاد مناسباً ملائماً، فيحسن أن تُجَمَّل

(١) زهر الأكمل في الأمثال والحكم، للحسين اليوسي ٢٠/١.

(٢) أمثال القرآن لابن القيم ص ١٧٤ .

(٣) هداية المرشدين ص ١٧٧.

الخطب أحياناً بما يناسب المقام، ويتّصل بالموضوع. والشعر أعلق في الذهن من المنشور، فإذا كانت الخطبة متضمنة لأشعار رائقة، فإن ذلك أدعى لطول بقاء أثرها في نفس السامع، لأن النفس تستحضر المنظوم من القول أكثر من استحضارها المنشور منه. ولقد كان لابن الجوزي اليد الطولي في قرض الشعر الزهدي، والاستشهاد بشعر من تقدّمه، ومواعظه ووصاياه. كما نجد يحث الخطباء على الاستشهاد بالشعر في الوصايا المواع فيقول: "ولا بأس أن ينشد الأبيات الزهديات فإن من الشعر حكمة"<sup>(١)</sup>. ومن نماذج ما أورده من أشعار في وصيته: قوله -رحمه الله-: أو ما سمعت قول الشاعر:

بالليل ما جئْتُكم زائراً إلا رأيتُ الأرض تُطوى لي  
ولا ثبِتُ العزمَ عن بابكم إلا تعثرتُ بأذيالي

وهذه الأبيات أتى بها في معرض ذكره سعة فضل الله، وإجابته دعاء من دعاه، وكشف كرب من التجأ إليه. ويقول -رحمه الله-: وتلمح سيرَ الكاملين في العلم والعمل، ولا تقنع بالدون، فقد قال الشاعر في ذلك:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

وفي هذا استشهاد بالشعر من باب الحث على علو الهمة وطلب المعالي. ويقول -رحمه الله-: "وابعث إلى صندوق القبر ما يسرك يوم الوصول إليه، كما قيل:

يا من بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل  
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل"

وفي هذه الأبيات ترهيب من الاغترار بطول الأمل، والتقاعس عن العمل.

رابعاً: إبراز القدوة الحسنة:

الأسوة والقدوة هي: الحالة التي يكون الإنسان عليها في أتباع غيره إن حسنا وإن قبيحا وإن ساراً وإن ضاراً<sup>(٢)</sup>.

(١) القصاص والمذكرين ص ٣٦٥.

(٢) التوقيف لمهمات التعريف للمناوي ص ٥١.

وقد جاء الترغيب في ضرورة الاقتداء بالأخيار من الأنبياء والصالحين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾<sup>(١)</sup>.

والناظر في وصية ابن الجوزي رحمه الله- يجده قد أسهب في ذكر القدوات الصالحة لابنه حتى يحصل الاقتداء بسمتهم ومنهجهم، حيث يقول: "وتلمَّح سِيرَ الكاملين في العلم والعمل". ومن نماذج ذلك:

### ١- الحث على الاقتداء بحال الأنبياء:

يقول -رحمه الله-: واعلم يا بني أن يونس -عليه السلام- لما كانت ذخيرته خيراً نجا بها من الشدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

### ٢- الحث على الاقتداء بحال السلف رحمهم الله:

يقول -رحمه الله-: "واعلم أي قد تصفحتُ التابعين ومن بعدهم فما رأيت أحظى بالكمال من أربع أنفس: سعيد بن المسيب، وسفيان الثوري، والحسن البصري، وأحمد بن حنبل؛ وقد كانوا رجالاً إنما كانت لهم همم ضعفت عندنا، وقد كان في السلف خلقٌ كثير لهم همم عالية، فإذا أردت أن تنظر إلى أحوالهم فانظر في كتاب "صفة الصفوة"، وإن شئت "أخبار سعيد" و "أخبار سفيان" و "أخبار أحمد بن حنبل"، فقد جمعتُ لكل واحدٍ منهم كتاباً".

### ٣- إبراز القدوة في نفسه:

السير على خطا الأسلاف من الآباء والأجداد إن كانوا على السمت الصالح، من أعظم ما يعين العبد على سلوك طريق الخير والرشاد. وقد جعل ابن الجوزي في

(١) سورة الممتحنة آية ٦

(٢) سورة الصافات آية ١٤٣/١٤٤.

هذه الوصية من نفسه قدوة لولده، وأكثر من ذكر محل القدوة في ذلك، لأن الولد صنو أبيه، والتشبه بالكرام فلاح.

قال -رحمه الله-: "وإني لأذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي، وتسأل الموفق لي، إن أكثر الإنعام عليّ لم يكن بكسي، وإنما هو من تدبير اللطيف بي، فإني أذكر نفسي ولي همّة عالية وأنا في المكتب ولي نحو من ست سنين، وأنا قرين الصبيان الكبار قد رُزقت عقلاً وافرّاً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع صبي قط، ولا ضحكت ضحكاً جارحاً، حتى إني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رجة الجامع، ولا أتخير حلقة مشعبد، بل أطلب المحدث، فيتحدث بالسند الطويل، فأحفظ جميع ما أسمع، وأرجع إلى البيت فأكتبه. ولقد وفّق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله، فكان يحملني إلى الأشياء، وأسمعي "المسند" وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يُراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثبتها، ولازمته إلى أن توفي رحمه الله، فأدركت به معرفة الحديث والنقل.

ولقد كان الصبيان يتزلون دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر ءأخذ جزءاً، وأقعد حُجرةً من الناس إلى جانب الرّقة فأتشاغلُ بالعلم. ثم ألهمتُ الزهد، فسردتُ الصوم وتشاغلت بالتقلل وألزمتُ نفسي صبرها، فاستمرأتُ وشمرتُ ولازمتُ، وأحببتُ السهر، ولم أقنع بفن واحد من العلم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهاد. ثم قرأت اللغة ولم أترك أحداً ممن قد انزوى أو يعظ، ولا غريباً يقدم إلا وأحضره وأتخير الفضائل.

وكنت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حق الحق، فأحسن الله تدويري وأجرائي على ما هو الأصلح لي، ودفع عني الأعداء والحساد ومن يكيدني، وهياً لي أسباب العلم، وبعث إلي الكسب من حيث لا أحتسب، ورزقني الفهم وسرعة الحفظ وجودة التصنيف، ولم يُعوزني شيئاً من الدنيا، بل ساق إلي مقدار

الكفاية وأزید، ووضع لي في قلوب الخلق من القبول فوق الحد، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته. وقد أسلم على يدي نحو من مائتين من أهل الذمة ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف، وقد قطعتُ أكثر من عشرين ألف جُمّةٍ مما يتعاناه الجهال. ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العَدُوِّ لئلا أُسَبِّق، وكنت أصبح وليس لي ما أكل أمسي وليس لي شيء وما أذلني الله لمخلوق، ولكنه ساق رزقي لصيانة عرضي ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح وها أنا ترى ما قد آلت الحال إليه".

#### ٤- إبراز القدوة بذكر النسب:

طيب الأصل مؤذن بطيب الفرع ولهذا يستدل بصلاح الفرع بصلاح الأصل قال تعالى: ﴿يَتَّخِذَ هَهُنَا مَكَانَ آبَائِهِمْ مَوَدَّةً وَنِصْبًا ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

ولهذا نادى ابن الجوزي رحمه الله- في ختام وصيته يَنبّه ولده إلى شرف النسب حتى يحذو حذو الأخيار من القرابة والأجداد، قال رحمه الله-: "يا بني واعلم أننا من أولاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه- وأبونا القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه- وأخباره موثقة في كتاب "صفة الصفوة" ثم تشاغل سلفنا بالتجارة والبيع والشراء فما كان من المتأخرين مَنْ رُزِقَ همةً في طلب العلم غيري وقد آل الأمر إليك، فاجتهد أن لا تحيِّب ظني فيما رجوتُه فيك ولك".

(١) سورة مريم آية ٢٨

## الخاتمة

ها أنذا - بحمد الله - ألقى عصا التسيار متمماً ما بدأت به من البحث في الدلالات الدعوية في وصية ابن الجوزي -رحمه الله- لولده المشهورة بـ "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد"

وأختتم ببيان الأمور التالية:

١- الوصايا الشرعية لها أهمية بالغة في توجيه الأبناء والأحباب إلى الخير وتحذيرهم من الشر وبيان عاقبته.

٢- الوصية المبرزة لها صفات عديدة؛ دائرة بين التأصيل العلمي، والحث على التقوى والاستقامة، والتحلي بكارم الخصال وطيب الفعال.

٣- اتسمت وصية ابن الجوزي لولده بخصائص عظيمة: فهي تجمع بين الأصالة في مصادرها، والتنوع في أساليبها ومضامينها، والقوة في بيانها وتراكيبها.

٤- بلغت عناية ابن الجوزي بوصيته لولده الغاية القصوى، واجتمعت فيه آلا الوعظ العلمية والأخلاقية والإيمانية، حتى غدت وصيته علماً مبرزاً وقدوة يقتدى بها.

٥- نوع ابن الجوزي رحمه الله تعالى في النصح لابنه حتى شملت العقيدة الصافية والعبادة الصحيحة والأخلاق الحميدة، والحث على طلب العلم الشرعي الذي به قوام الدنيا والدين.

٦- ظهرت قوة ابن الجوزي -رحمه الله- في هذه الوصية في براعة الاستهلال وحسن الختام وسهولة الألفاظ وتراكيب الكلام.

وفي الختام أوصي نفسي وإخوتي على نهج منهاج ابن الجوزي في النصح للأبناء فهو نعم الاستثمار في الحياة وبعد الممات وانقطاع الأعمال.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. .

## فهرس المصادر والمراجع

١. أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي. ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٧٨، تحقيق: عبد الجبار زكار .
٢. إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ط/دار المعرفة - بيروت.
٣. أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. شركة مصطفى الحلبي - مصر - ١٣٩٣هـ، ط/٤، تحقيق: مصطفى السقا
٤. أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري. دار الصحابة للتراث - طنطا - ١٤٠٩، ط/١، تحقيق: سمير حلبي
٥. الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط/٣، ١٤٠٩هـ.
٦. الأدب المفرد، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي. دار البشائر الإسلامية - بيروت - ١٤٠٩هـ، ط/٣، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي
٧. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود): محمد بن محمد العمادي أبو السعود، ط/ دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٨. الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٠م، ط/١، تحقيق: سالم محمد.
٩. أسرار البلاغة، عبد القادر الجرجاني، مكتبة المتنبي، ط/٢، ١٣٩٩ هـ
١٠. أصول الدعوة، د عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٩، ١٤٢٣هـ.

١١. إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، ط/ دار الجيل بيروت م١٩٧٣، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.
١٢. أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع تأملات وتدبر، تأليف: عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني. ط/٢، دار القلم - دمشق - ١٤١٢ هـ.
١٣. الأمثال في الحديث النبوي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبو الشيخ الأصبهاني، الدار السلفية الهند ١٤٠٨ هـ، ط/٢، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد.
١٤. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار صعب، بيروت، ط/١، ١٩٦٨ م، تحقيق: المحامي فوزي عطوي.
١٥. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضي الزبيدي، تحقيق: المحامي فوزي عطوي دار مكتبة الحياة، بيروت.
١٦. تحفة المودود بأحكام المولود: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، مكتبة دار البيان - دمشق، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ط/١، ١٣٩١ هـ.
١٧. تفسير القرآن العظيم: الحافظ أبو الفداء ابن كثير، ط/ دار الفكر، بيروت، ط/ ١٤٠١ هـ.
١٨. تلبيس إبليس، الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق وتخريج: محمد علي أيوب العباس، ط/ مكتبة القرآن للطباعة.
١٩. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي. دار الفكر - دمشق - ١٤١٠ هـ، ط/١، تحقيق: د. كمال رضوان.

٢٠. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، الإمام زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط/ ٧، ١٤١٧هـ.

٢١. الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط/ دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ.

٢٢. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. ط/ دار النشر: مكتبة المعارف - الرياض - ١٤٠٣ هـ، تحقيق: د. محمود الطحان.

٢٣. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، ط/ ٤، ١٤٠٥هـ.

٢٤. ديوان الإمام الشافعي. دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٦ هـ، ط/ ٣، جمع وتحقيق وشرح: د. اميل بديع يعقوب.

٢٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الألوسي أبو الفضل، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٦. زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسين اليوسي. دار الثقافة للنشر والتوزيع - ط/ الدار البيضاء - تحقيق: محمد حجي، وآخرين.

٢٧. صحيح سنن الترمذي، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، توزيع المكتب الإسلامي، ط/ ١، ١٤٠٨هـ.

٢٨. صحيح سنن النسائي، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، توزيع المكتب الإسلامي، ط/ ١، ١٤٠٩هـ.

٢٩. صحيح مسلم، الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.



٣٠. صيد الخاطر، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٢٤ هـ، ط/١.
٣١. العزلة، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي. المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٩٩ هـ، ط/٢.
٣٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي. دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥ م، ط/٢.
٣٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترتيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ المكتبة السلفية.
٣٤. الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. دار ابن الجوزي - السعودية - ١٤٢١ هـ، ط/٢، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي.
٣٥. القاموس المحيط: للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٣، ١٤١٣ هـ.
٣٦. القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - الرياض - ١٤١٩ هـ، ط/٣.
٣٧. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري. ط/ المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٠٦ هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم.
٣٨. الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش محمد المصري، ط/ دار النشر، مؤسسة الرسالة - بيروت -
٣٩. لسان العرب، الإمام العلامة ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ثم المصري، دار صادر، بيروت، ط/١.

٤٠. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية الحرّاني الدمشقي، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني النجدي، وابنه محمد، ط/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.
٤١. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ط/ ١٤١٥هـ.
٤٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣هـ، ط/ ٢، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٤٣. المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسبوري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط/ دار الفكر، بيروت.
٤٤. المسند، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ط/ الميمنية، وبهامشه منتخب كثر العمال من سنن الأقوال والأفعال، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/ ٢، ١٣٩٨هـ.
٤٥. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ط/ المكتبة العلمية، بيروت.
٤٦. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ط/ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، ط ١، ١٤١٢هـ.
٤٧. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار. ط/ دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، عام ١٣٩٢هـ.
٤٨. المغني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن قدامه المقدسي، تحقيق: أ. د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، ط/ ١، عام ١٤٠٦هـ.
٤٩. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد الخطيب الشربيني، ط/ دار الفكر بيروت.

٥٠. مفاتيح الغيب: (التفسير الكبير)، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي. دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ، ط ١.
٥١. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي. ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٢. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي. دار القلم - بيروت - ١٩٨٤ م، ط ٥.
٥٣. منهج الإسلام في تزكية النفس، وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، د. أنس كرزون. دار نور المكتبات، دار ابن حزم - جدة، بيروت - ١٤٢١ هـ، ط ٣.
٥٤. من روائع النصائح والوصايا لفئة الكبد إلى نصيحة الولد الإمام الحافظ أبو الفرج بن الجوزي، نصح بها ولده أبا القاسم بدر الدين، شرح وتحقيق أشرف عبد المقصود بن عبد الرحيم عفا الله عنه ط/ ١٤١٢هـ، مكتبة الإمام البخاري.
٥٥. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول، إعداد مجموعة من المختصين، إشراف د. صالح بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط/ ١، ١٤١٨هـ.
٥٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. ط/ المكتبة العلمية - بيروت - ١٣٩٩هـ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي
٥٧. نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني الناشر: ط/ إدارة الطباعة المنيرية
٥٨. هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ. دار مصر للطباعة: ١٣٩٥ هـ، ط/ ٧.